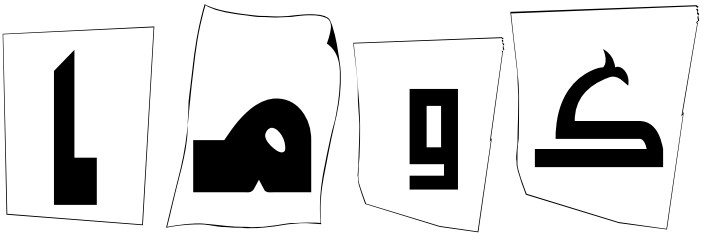

د.محمد خليل حسن

دار بيوند للنشر والتوزيع
٤ ش كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
٠١٠٩٦٩٠٠٠٠٧
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الأراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها .ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر

الكتاب: كوما

المؤلف: محمد خليل حسن

الطبعة: الاولي

تصنيف الكتاب: رواية

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

التدقيق اللغوي: سكون لخدمات الكتب

الإخراج الداخلي: صبرينة غلمي
رقم الإيداع: ٢٠١٨ / ٢٢٩٠٤

الترقيم الدولي: ٢-٥٩-٦٦٤٥-٩٧٧-٩٧٨

دار (بيوند) للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة — **محمد عز الدين**

المدير العام — **صبرينة غلمي**

المدير التنفيذي

جلال عز الدين

إهداء

عذرا سيدي العراب ولكنّ هؤلاء الشباب لم يكتفوا بالقراءة بل تجرأوا وصاروا يكتبون

(١)

تثاءب منصور السعداوي طبيب الاستقبال في المستشفى العام ناظرا للساعة المعلقة على الحائط والتي تنبئ عقاربها الطاعنة في السن أن الوقت لا يزال طويلا في تلك النباطشية الليلية الحارة رغم دوران تلك المروحة التي تئن مع كل حركة كعجوز أصيبت بخشونة المفاصل ناقلا ناظريه لجنبات المكان المظلم اللهم إلا تلك المصابيح الصفراء المعلقة بسلك متآكل ينذر بالظلام في أي لحظة، ولكن حتى الآن فالليلة هادئة ولا مجال لأي منغص لهدوء الليل، اللهم إلا ذلك الطنين المزعج الصادر من تلك البعوضة الممتلئة بطنها بدماء المرضى متنقلة بحرية من هذا لذاك لتعلن على الملأ فشل منظومة مكافحة العدوى بالمستشفى.

ولكن كما تدين تدان فهي لا تعلم أن فيروس سي يتجول في بطنها كي يفتك بكبدها في أقرب وقت ولن تجد بالطبع العلاج المناسب الذي سيعالج الفيروس، وإن كان منصور لم يبدِ اهتماما بعدواها فهو يعرف في قرارة نفسه، أو بالأحرى يقنع نفسه، أنه اكتسب الكثير من المناعة ضد الأمراض البسيطة نتيجة تعرضه المستمر لها بما يعرف بمناعة القطيع، في الوقت الذي يريد أن يوفر بدل العدوى الذي يتحصل عليه ليضعه كمقدم لحذائه الجديد الذي سيحضر به مناسباته القادمة سواء مناقشة رسالة الماجستير التي أفنى سبعة أعوام كي ينالها وأيضا

لحضور عقيقة حفيدة أخته في الوقت الذي يصارع هو كي ينهي رسالة الماجستير لعله وعسى يلحق بعقد عمل يعينه على بدء التفكير في الزواج بدلا من حضور عقيقة أحفاده.

قد يظن البعض أنه يكره الطب، كلا، كيف يكره الطب وهو طالب الأجيال! سرح بخياله بعيدا متذكرا ذلك اليوم الذي وطأت قدماه ذلك القصر العتيق الذي علّم العالم كله حيث كانت البعثات تشد الرحال إليه ولا داعي بالطبع لذكر حالنا الآن حيث لا شيء مخططًا في حياتنا الآن بعناية سوى الحمار الوحشي، حيث كان محمّلا بأعظم الأماني وكان يترفع بأن يذكره الناس بأسامي عظماء الطب كمجدي يعقوب، فهو بالطبع لن يصل إليهم بل سيفوقهم وسيتردد اسمه في الآفاق، ولكن اصطدم بالواقع الأليم فبدلا من أن يصعد سلم المجد أُجبر على الاستقرار في البدروم وأصبح لا يهتم به أحد سوى الأستاذ مسعود الطرابيلي موظف دفتر الحضور والانصراف والشركة الألمانية لإبادة الحشرات والتي لا يعلم حتى الآن كيف وصلت لرقم هاتفه ولكنه للأسف لا يعرف أن يمتهن أي شيء غير الطب.

الطب، ذلك البحر الواسع، والذي قد تستطيع سبر أغوار مثلث برمودا ولكن لا تستطيع الوصول إلى شطآنه، فالطب لدينا كالماء والهواء فالماء مقطوع والهواء كما تعرفون مشبع بأسوأ أنواع الملوثات، فلنعترف يا صديقي أن الطب مهنة سامية لا يحتاج ممتهنوها للمال، فإذا احتاج

الطبيب لشقة يسكن فيها فسيجد فيلا في منتجع سامية، وإذا احتاج لا قدر الله لسيارة فسيجدها في مصانع سامية، وإذا احتاج كباقي البشر للطعام فأمامه مطاعم سامية يأكل كيفما يشاء، وإن احتاج لبعض من الرفاهية الحقيرة فأمامه بورتو سامية، وإذا غلبه شيطانه وفكر في الزواج فلديه ابنة سامية، وكذلك في المدارس والملابس فسامية لا تدع لنا مجالا للتفكير في تلك الماديات الحقيرة التي تخدش رونق سامية، فلماذا لا نجمع أولئك الأطباء الباحثين عن تلك المادية السفيهة في واد سحيق ونهيل عليهم التراب ثم نجمع كل كلاب الحي الضالة كي يتبولوا عليهم كي يكونوا عبرة لمن خلفهم.

بل لا تسمعوا لأصحاب القلوب الطيبة لكي تخرجوهم من البلاد ونفيهم للسويد أو النرويج أو غيرها من الدول المتخلفة، واطمئنوا لن يمرض أحد في يوتوبيا التي نعيش فيها حيث لا مجال لتاجر يخبئ السلع حتى يزيد سعرها، ناهيك عن الميكانيكي الذي يصر أن تصلح سيارتك مجانا في الوقت الذي يصر فيه المدرس على عدم إعطاء دروس خصوصية وإن فعلها ستكون مجانا.

أخرجوا أولئك الملاعين من بلادكم وإن مرض أحدكم فالعلاج موجود وإن فشلت فوصفات العلاج موجودة بكل القنوات الهادفة من ذلك الحنكليس المستخرج من جبال الهيمالايا المعالج لكل الأمراض.

كلا لن ألتفت لل NIGHT OVERTHINKING.

قالها وهو يخلع ذلك البالطو الذي يبدو أنه كان أبيض في يوم من الأيام قبل أن ترسم عليه نبطشيات المستشفى ما يعجز جنون سلفادور دالي أنا يأتي بمثله ليذهب متثاقل الخطى نحو ذلك الكشك الخشبي المتهالك لكي يشرب قهوته كي تعينه على إيقاظ تلك الخلايا العصبية الرابضة في كومة القش التي تسكن الجمجمة المنهكة، فقد فات القليل من الليل وبقي الكثير، وبالفعل ما إن جلس على الكرسي المتهالك حتى جاءه ذلك الفتى اليافع "سليم" صاحب الكشك الخشبي بفنجان القهوة الذي رقص عقل الطبيب له طربا لتخلط رائحة القهوة بنسيم الليل العليل ليخلق جوا شاعريا يجعل من سعيد الهوا شاعرا من شعراء المعلقات السبع ليتمتم بعدها د. منصور موجها كلامه للفتى اليافع "سليم":

- أتعلم يا سليم، قهوتك العظيمة هذه لم أذق مثلها في سيلانترو أو جراند كافيه.

- هذا من ذوقك يا دكتور.

- ليس الأمر موضوع ذوق يا سليم ولكني بالفعل لم أذق مثلها في هذه الأماكن لأني لم أذهب هناك من الأساس.

لتعلو ضحكات الاثنين لتشق سكون الليل مما أزعج إحدى القطط المارة والتي كانت تبحث عن بقايا فتات الأكل الذي كان يلقيه المصريون في القمامة، ولكن يبدو أنهم صاروا يأكلون الفتات بشراهة، فتركتهم

وسارت بعيدا ناظرة إليهم في توجس وخيفة ولسان حالها يتساءل عن نوع الصنف الذي ينشر الفرحة لدى هذين المخبولَيْن.

ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن، حيث زأر صوت سارينة الإسعاف، ذلك الصوت المقيت الذي ينبئ بليل طويل تتسارع فيه الأنفاس لإنقاذ حياة المريض معتمدة على الله أولا ثم على دولاب من الأدوية التي لا تكفي لمعالجة برص يعاني من حساسية جيوب أنفية، ولكن كما قالوا في الأمثال "الشاطرة تغزل برجل حمار" ولكن للأسف د. منصور لم يجد رجل الحمار أصلا كي يغزل بها.

ألقى د. منصور كوب القهوة جانبا متوجها نحو غرفة الطوارئ ليجد الممرض المساعد قد غطّ في نوم عميق غير عابئ بطنين الناموس وقد أخرج سيمفونية مميزة من أنفه تنبئ بخوض الهواء معارك ضارية كي يتمكن من العبور عبر حواجزه الأنفية التي أنهكتها الحساسية والمخاط الناتج عن أطنان من دخان السجائر رديئة النوع ليصفق منصور محاولا إخراج الممرض من غيبوبته المؤقتة ليهب الممرض فزعا متهما د. منصور بأنه أخرجه من حلم العمر، حيث كان يسير في حديقة غنّاء مع فرجينيا جميلة الجميلات، وأنه أيقظه قبل أن يطلب يدها من أبيها الحاج أبو فرجينيا صاحب أكبر محلات عطارة في روما القديمة، ولكن د. منصور لم يعبأ له فلا وقت لذلك فصوت سارينة الإسعاف المزعجة قد

اقترب كثيرا، ذلك الصوت الذي ينبئ بوجود مصيبة عظمى إلى أن يثبت العكس.

وبالفعل كما هي العادة يدخل المسعفون في سرعة مصطنعة بتروللي ممدد عليه شاب ثلاثيني في حالة إغماء تام وسرعان ما ألقوه على سرير الكشف بالاستقبال في رتابة، وهنا بادر د. منصور المسعف بسؤال هام:

- ماذا حدث؟؟؟

- لا نعرف فقد تلقينا اتصالا من مركز العمليات الرئيسي تفيد بوجود حالة فاقدة للوعي بجوار السنترال وحينما وصلنا لما نجد أحدا بجوار الحالة فحملناه وأتينا لهنا.

- ألم تجدوا مع هذا الشاب أي أوراق تشير لحالته أو لشخصيته؟

- كلا كالعادة لم نجد ففي أغلب هذه الحالات يتكفل بعض الشرفاء بسرقة كل ما مع المريض سواء من مال أو هاتف محمول أو حتى المحفظة.

- لماذا أصبح الشعب بهذا السوء؟؟ أين اختفت الرحمة فيما بينهم!!

- ذهبت مع "اللي اختشوا"، فلنسعف المريض أولا ثم نتجادل كما نشاء عن ذلك الخنزير موران الذي سرق المريض.

- أعطني أولا رجل الحمار كي أغزل بها.

- ماذا؟؟

- عفوا، أعطني جهاز الضغط والسماعة وجهاز السكر سريعا.

- ماذا؟؟ ليس لدينا شرائط سكر منذ شهرين وأنت تعلم ذلك جيدا.

- إذن كيف سنقيس له نسبة السكر بالدم وليس لدينا شرائط سكر ولا لدينا رجل الحمار؟

رد المسعف بابتسامة صفراء:

- هل سننتظر كثيرا؟؟ سننصرف لدينا الكثير من الحالات يجب نقلها.. ها هو رقم هاتفي إن احتجت شيئا فلا تتردد في الاتصال وستجدني أمامك بسرعة كما لو كنت قد طلبت زيادة بدل العدوى.

ثم خرج المسعف مع سائق الإسعاف سريعا قبل أن يفكر د. منصور في الرد.

وما إن خرج المسعف مع سائق الإسعاف حتى علا صوت سائق الإسعاف للمسعف:

- كيف تعطيه رقم هاتفك؟؟ سيزعجنا بالاتصال!

- يا لك من غبي، لقد أعطيته هاتف الحلاق المجاور للمستشفى، هيا لنلحق بالحالات المستعصية التي تنتظرنا على القهوة لإكمال الدورة الدولية لأبطال الدومينو.

ليقفزا في السيارة سريعة والتي غطت صوت سارينتها المزعجة على صوت ضحكاتهم الرقيعة.

التفت د. منصور لذلك الشاب الثلاثيني الراقد في سبات عميق وإن كان قد بدا عليه أنه ليس مدمنا، حيث لا توجد آثار حقن أو أي علامات تدل على كونه مدمنا بل ولا توجد على جسده آثار كدمات تدل أنه أصيب في حادث أو مشاجرة معتادة، فالأساس أن الشعب يتشاجر مع ذباب وجهه، بل يبدو من قسمات وجهه الهادئة وشعره المهندم بل ورائحة ملابسه الأنيقة أنه كما يقولون "ابن ناس"، إذن فلنبدأ بفحص المريض لعل وعسى تكتب له النجاة.

مرت ربع ساعة كاملة فحص فيها د. منصور الشاب فاقد الوعي فلم يجد سببا واضحا للغيبوبة التي يعيش فيها، فجميع العلامات الحيوية للشاب طبيعية تماما، وتم سحب عينة دم لإرسالها للمعمل المتواضع الموجود بالمستشفى لعل وعسى يصل للتشخيص المنشود، وبالطبع لن يفكر د. منصور أن يجد لمريضه مكانا في العناية المركزة بالمستشفى بل ولن يجهد نفسه في الاتصال بطبيب الرعاية لأنه يعلم جيدا أن طبيب العناية غير متواجد بالأساس، فهو موجود بالمستشفى الاستثماري الموجود على أطراف المدينة بحجة أن النوباتجية مقابلها قليل عكس المستشفى الاستثماري، وحينما واجهه منصور بتحريم ذلك فأجاب ببرود يحسد عليه:

- أعدك يا منصور أن أتواجد في نبطشيتي بالمستشفى عندما يتوفر لديها عناية مركزة من الأساس.

إذن لا مجال للتصرف سوى بالاعتماد على النفس، وبلطف القدر وجد لديه كرتونة محاليل كادت تنتهي صلاحيتها ستساعد جسد الشاب على الاستمرار، والحمد لله أن التنفس طبيعي فلن يحتاج للأكسجين، فالأسطوانات خاوية كجيوب الموظف في اليوم الخامس من الشهر، إذن فلنتابع المريض لعل وعسى يأتي صاحب الفرج بالفرج.

مر يوم كامل والراقد في غيبوبته كما هو لا جديد، وجاء موعد انصراف د. منصور من النوباتجية تاركا المريض بكل تفاصيل حالته المتاحة لزميله الشاب د. محمود المسعودي، وإن لم يخفِ منصور من قلقه على حياة ذلك الراقد في سبات عميق، ولولا ارتباط د. منصور بعمله في المستشفى الخاص وكما تعلمون أن العمل الخاص لا يرحم ولعل د. منصور قد صار كبيرا بما فيه الكفاية ألا يبكي وهو ذاهب للعمل الخاص خاصة وأن المستشفى الخاص ليس بها دفتر للتوقيع على الحضور، بل هي تلك البصمة اللعينة التي لا يمكن التلاعب بها، إذن لا مفر من الذهاب، فلتكن حريصا يا صديقي المسعودي ولو حدث أي تغيير للوضع اتصل بي حالا.

انصرف د. منصور متثاقلا نحو عمله بالمستشفى الخاص وهو يفكر كثيرا دون الانتباه للمحيطين لدرجة أنه لم يلتفت للكلاب الضالة المحيطة بالمستشفى والتي تساعده يوميا على قطع المسافة من المستشفى حتى أقرب مكان لركوب الميكروباص الموصل للمستشفى

الخاص في غضون دقائق معدودة، فنبحت كثيرا ثم صمتت بعد أن ضاع عليها متعة رياضة اليوم، بل وكاد يدهسه ذلك الكائن الحقير ذي الثلاث عجلات رغم الأصوات الأوبرالية المنبعثة المزعجة من كاسيت ذلك الكائن والتي جعلت السائق يتمايل حتى كاد ينقلب به التوك توك على قدم د. منصور.

مر اليوم ثقيلا على منصور وقد سيطر على تفكيره حالة ذلك الراقد مسائلا نفسه لماذا تعاطف قلبه مع ذلك الشاب تحديدا؟ مريض مثل أي مريض سيتم وضع بروتوكول علاج له كغيره بفرضية وجود العلاج ثم يصرف من حيث أتى، ولكن مهلا، كيف سيُصرف من المستشفى ونحن لا نعلم ماهيته ومن أين أتى؟؟؟ بالطبع عندما يفيق من غيبوبته سيعرفنا من هو، الأمر لا يحتاج لذكاء خارق، ولكن فجأة قفز ذلك السؤال البديهي لقلب د. منصور قبل عقله، ماذا لو لم يفق المريض من الغيبوبة؟؟؟

تسمّر د. منصور مكانه وسمح لرئتيه بصعوبة أن تستنشق ذلك الهواء الذي بدا وكأنه قد خلا من الأكسجين بحثا عن إجابة لذلك السؤال، وسرعان ما حرك ذراعه بلا مبالاة مصطنعة ساخرا من نفسه، هل ستتقمص شخصية د. سوزان في رائعة السينما فيلم "COMA" أو الغيبوبة؟؟؟ دعك من هذا الهراء فلا يوجد غرفة عمليات بالمستشفى من الأساس كي يُصاب داخلها بالغيبوبة، كما أن مايكل دوجلاس ليس من

أطباء المستشفى حاليا، وأكمل عملك الرتيب وإلا لن تجد ما تسدد به قسط الحذاء الجديد، وأكمل إقناع نفسك بوهم أن كل الأمور على ما يرام وإن كان قلبه قد حدثه بغير ذلك تماما.

تنهد د. منصور بأريحية بعد أن انتهى عمله في المستشفى الخاص فلحسن الحظ قد أتى زميله الذي سيتسلم منه النوباتجية في موعده تماما فلا مجال للتلاعب مع البصمة، حيث لن يكون طبيعيا أن تقطع إصبعك ليبصم زميلك مكانك فللأسف ليس لديك سوى عشرة أصابع وبالطبع لن تكفى يداك إلا للزوغان أكثر من عشرة أيام، إذن فلنعد للمستشفى العام فلعل ناموس الاستقبال يفتقدني الآن، ولا أدري كم ما فاتني من العدوى التي تجعلني جديرا ببدل العدوى الذي أرجو ألا يزيد عمّا هو عليه الآن، فالأطباء معروفون ببذخهم فلك أن تتخيل لو زاد بدل العدوى لمائة جنيه فقد يتهور الطبيب ويشتري عصير مانجو.

ركض منصور ملهوفا نحو موقف الميكروباصات لكي يلحق بميكروباص يوصله للمستشفى العام فلم يجد إلا أطلال ميكروباص مكتوب على ظهره عبارة بحروف سيريالية تنافس أعتى اللوحات التشكيلية التي لا يفهمها إلا القليل وبالطبع لست منهم "حمو الأسترالي نجم نجوم الأسفلت" فبدا لي أن الميكروباص تم تكريمه بصفته الناجي الوحيد من مخلفات هيروشيما فدفعني الفضول لرؤية نجم نجوم الأسفلت الذي استطاع بمهارته الفائقة نحت تلك التحفة الفنية السائرة على ثلاث

عجلات ونصف تقريبا، وسرعان ما رأيت وجها لا يختلف كثيرا عن الميكروباص، حيث تدلت من فمه -السائق طبعا- سيجارة حقيرة ملفوفة بعناية شديدة، ولكن للأسف رآني السائق منبهرا فابتسم ابتسامة زرقاء بلون اللثة الخالية من الأسنان فقدها في حرب الهكسوس.

- رايح المستشفى العام يا تكتور ولا إيه؟؟

فابتسم منصور ابتسامة المداهن لحمو الأسترالي اتقاءً للسانه فركب منصور سريعا داعيا الله أن يصل للمستشفى بأقل الخسائر، ولكن أبى حمو الأسترالي أن يجلس منصور في الكراسي الخلفية مقسما بأغلظ أيمان الطلاق أن يجلس منصور في كابينة كبار الزوار منفردا بجوار حمو أثناء قيادته لسفينة الميكروباص نحو هدفها المنشود، لينطلق عندها حمّو بأقصى سرعة رغم زئير المحرك المتهالك والتي لم يستطع منصور رغم خبرته أن يميز صوتها من صوت حمّو الأجش الذي يسعل كل نصف دقيقة مما يوحي بوجود أطنان من أبخرة النيكوتين العطن المتراكمة على مدار السنين، غير آبه للأدخنة الملونة المنبعثة من أسفل السيارة، فاعتبرها منصور قنابل دخان كالتي تُطلق في الأفراح ترحيبا به.

وكما كان متوقعا، لم يتوقف لسان حمّو الأسترالي عن التفوه بمجموعة منتقاة من الألفاظ والتي يعجز أعتى الفاسقين عن الإتيان بها لاعنا جشع ذلك الطبيب "الحمار" الذي لم يصف لحمّو مضاد حيوي ٥٠٠ كي

يشفيه من البرد فتركه وذهب لطبيب ثاني "حمار أيضا" وصف لحمّو مضاد ١٠٠٠ كاد يفتك به، بالطبع لم يستطع منصور أن يخبر حمّو الأسترالي أن دور البرد لا يحتاج لمضاد أساسا وإلا سيكون هو الطبيب الحمار الثالث فاكتفى بهز رأسه مع مصمصة الشفاة مواكبة لحالة الحزن التي يعيشها حمّو، بل وكي يقنع منصور حمو أكثر وأكثر أخبره إنه كان من الضروري أن يكتب أحد الحمارين السابقين لحمّو فيتامين كي يصلح ما أفسده الدهر، عفوا، ما أفسده المضاد.

هنا ترك حمّو مقود السيارة مطلقا تحية كبيرة لل"تاكتور" الوحيد الذي بدا فاهما لعمله لتنحرف السيارة بصورة مرعبة نحو ترعة مليئة بحيوانات نافقة، ولكن سرعان ما تحركت أطراف حمّو الأسترالي الأربعة في تناسق نفسي عضلي لكي يعيد التحكم في الميكروباص في مهارة لو رآها مايكل شوماخر وكيمي رايكونين لتركوا سياراتهم الفاخرة وأتوا حبوا لكي يتعملوا مبادئ القيادة الحقيقية عند نجم نجوم الأسفلت والذي بدا أن اللقب لم يحصل عليه حمّو من فراغ، وبالطبع كاد منصور أن يفقد أعصابه بعد اقترابه من الموت قبل أن يشتري الحذاء الجديد، وهنا أطلق حمّو ضحكة عالية ساخرا من قلب منصور الضعيف في الوقت الذي لم يعر راكبو الميكروباص اهتماما بمغامرات حمّو، إما لتعودهم على تلك الأكروبات، أو لعدم اهتماهم بالبقاء على قيد الحياة أصلا، وإن كان الذي استعجب منه منصور أن وجد من راكبي

الميكروباص من يصفق لحمّو على مغامرته غير المحسوبة والتي كادت تودي بحياتهم، وما بقي إلا أن يطلب منه المحاولة مرة أخرى لعل وعسى تصيب هذه المرة ويتخلصون من حياتهم البائسة.

مر الوقت ببطء على منصور رغم السرعة النسبية للميكروباص، حيث سأله حمو ما يقرب من ثلاثمائة سؤال في الطب متنوعة ما بين الإسهال الذي أصاب ابن خالة أمه مرورا بخشونة مفاصل عمة زوجته انتهاءً بمشاكل القيلون "القولون" التي تصيب الدجاج الملقى على سطح منزله، وبالطبع أبدى منصور اهتماما مصطنعا بالأسئلة كي لا يتعرض لما لا يحمد عقباه من حمو، وفجأة صدر صوت غريب من محرك السيارة وتصاعدت كثير من الأدخنة لم يتحملها منصور فسعل بشدة مما أثار نوبة ضحك لدى حمّو ليكشف عن صف أسنان تم تدميره تقريبا مع حرب الفوكلاند وبقيت أطلال منها فقط لكي تذكره بأمجاد الماضي قائلا:

- يا لك من رقيق الصدر يا تكتور.

أوقف حمّو الميكروباص في منتصف الطريق غير عابئ بنعيق السيارات التي تسير خلفه فهم على حد وصفه "كلاب همجيين" لينزل كي يتفحص المحرك وما هي لحظات حتى انطلقت من لسانه بعض العبارات التي بالطبع لا يمكن فهمها وحتى إن فُهمت فلا يمكن كتابتها

منزلا لعناته على الشركة المصنعة للمحرك فكيف يتعطل رغم أنه فات على تصنيعه ثمانون عاما فقط!

ثم أشار لراكبي الميكروباص إشارة بترك الميكروباص لم يجرؤ أحدهم على عصيانها لكي يكملوا طريقهم سيرا على الأقدام، وبالطبع لم يفكر أحدهم بمطالبته بنصف الأجرة حفاظا على أرواحهم قبل كرامتهم.

انصرف منصور سريعا من الميكروباص ولحسن حظه أن المستشفى ليست بعيدة ولن يشعر بالتعب في الطريق، فها هي الكلاب الضالة مستعدة كي توصله للمستشفى أسرع من بساط الريح، وما هي إلا دقائق ووصل منصور للمستشفى العام متلهفا لسماع الأخبار الجيدة عن ذلك الراقد وما إن دخل المستشفى حتى وجد زميله النوباتجي يجري عليه متلهفا فظن أن هناك جديد عن المريض فوجد زميله د. محمود المسعودي يصرخ فيه:

- لماذا تأخرت؟

- هل حدث جديد مع المريض الذي جاءنا؟

- فلتذهب أنت ومريضك للجحيم، إنك تأخرت عليّ وسيخصم مني نصف يوم في المستشفى الخاص بسبب تلكعك، مريضك كما هو لا جديد.

ولم يكمل المسعودي حديثه ليقفز سريعا في توك توك ليلحق ما تبقى من راتب يومه.

لم يفكر منصور في النظر للساعة كي يلحق بالأستاذ الطرابيلي للتوقيع في دفتر الحضور، كأنما ذلك التوقيع هو الذي سيصلح منظومة الصحة، بل كان جُلّ تفكيره أن يذهب لمريضه الراقد ليجده كما هو، العين مستسلمة لنوم عميق لا ترغب في الخروج منه ولسان حاله يقول دعوني في عالمي الذي أريده.

أعاد منصور فحص المريض مرات عديدة عساه يجد الجديد، وبقي الوضع على ما هو عليه، فلم يجد بُدّا من الانتظار لعل صاحب الفرج يأتي به، وتمر الأيام ولا جديد تحت المصابيح الصفراء العفنة، ولكن زاد ارتباط منصور وتعاطفه مع الراقد للدرجة التي جعلت منصور يجلس بجواره لفترات طويلة يحادثه، يبكي معه تارة ويضحك معه تارة، يخبره بأحلامه التي تتهاوى أمامه ثم يضحك بصوت عال حينما يخبره عن مغامراته في الطب، فقد سيطر الراقد على فكر منصور الذي بدأ يتجاهل العمل بالمستشفى الخاص ليظل بجوار الراقد أطول فترة ممكنة، وتمر الأيام ولم يظهر أي شخص يدعي معرفته بالمريض الراقد، وأيقن منصور أنه الآن في دائرة مفرغة، مريض في غيبوبة تامة ومجهول الهوية ومستشفى بلا إمكانيات، أفلا أجد مع أحدهم رقم هاتف أبو قراط كي يخرجنا من هذه الدائرة؟

- ما تحط صورته عالفتيسبوك يا تكتور..

قالها الحاج مصطفى، ذلك العجوز الذي يعمل في نظافة المستشفى بعفوية عندما وجد د. منصور يجلس أمام الراقد في يأس. نزلت الكلمات العفوية على قلب منصور كأهداف الأهلي في الدقيقة التسعين فنظر لعم مصطفى نظرة الظمآن عندما يرى الماء ليحتضن عم مصطفى ليلتقط هاتفه بسرعة البرق وهو يكاد يبكي فها هو قد كُسرت الدائرة المفرغة، فلنحاول لعل وعسى نصل لماهية الراقد، وسرعان ما أعاد منصور الهاتف لجيب البالطو منكسرا فقد انتهت باقة الإنترنت الخاصة به فبدل العدوى لم يعد يكفي لتجديد الباقة، ولكن الأمر يستحق، فلنقترض من الشبكة وسنعوضهم فيما بعد، ما هذا؟ لقد نسيت أني قد تجاوزت حد الاقتراض ولن تقرضني الشبكة ثانية حتى أجدول ديوني لديهم، إذن ليس هناك إلا حل واحد، لن أدفع قسط الحذاء الجديد هذا الشهر وليذهب الحذاء والماجستير للجحيم وثمن القسط يكفيني لتجديد الباقة، إذن فلنفعلها.

وفي بضع دقائق انهالت الرسائل على هاتف منصور تذكره بأنه قد عاد الحق لشبكاته وتم تسديد الدين وتجديد الباقة العقيمة وفوقها رسالة تبشره بتخفيضات هائلة على عروض شبكات الجيل الرابع في الوقت الذي يضطر فيه منصور إلى الصعود فوق دولاب الأدوية المتهالك كي يلتقط إرسال الشبكة، لا وقت لدي أيها الحمقى لانتظار عروضكم الجوفاء التي لا هم لها إلا ابتلاع ما تبقى من رصيد، وبالفعل فتح منصور

الفيسبوك الخاص به ليجد آلافا من الرسائل التي تقسم عليه أن يمررها لغيره بل والأدهى تلك الرسائل التي يقسم صاحبها أن تردها إليه كما هي مع مئات الإشعارات لمجموعات غريبة تتنوع بين قروب أبو نواف لتبادل الطوابع مرورا بجروب أم فتكات اللي مجهزة البنات انتهاءً بمجموعات البيع والشراء التي تتميز دائما بكلمة مهمة ألا وهي التواصل على الإنبوكس.

ترك منصور ذلك الهراء كي يراسل الصفحات المشهورة واضعا تفاصيل وصورة ذلك الراقد ومرفق معها بالطبع هاتفه الخاص آملا في الوصول لأهل ذلك الراقد والذي لا يزال على حاله هانئا في غيبوبته، وبعد جهد كبير تم تحميل الصورة على الفيسبوك، وأسند منصور رأسه بجوار سرير ذلك الراقد منتظرا الاتصال المنشود.

(٢)

وضع منصور يديه على عينيه ليحميهما من ذلك النور الذي سطع فجأة للدرجة التي جعلته يركع على الأرض كي لا يتعرض لحادث ما، وبعد لحيظات تكيفت العين على ذلك النور لكي يستعيد منصور قدرته على الرؤية ليجد نفسه في مكان رحب تنبعث من حوله روائح جميلة جعلته يشعر باطمئنان غريب وراحة بال لم يعدها قلبه منذ أن كان يجلس في حضن أمه.

قام منصور من ركوعه مستنشقا ذلك الهواء العليل الذي أحس منصور أنه قد اخترق كل خلايا جسده وأعاد لها رونقها والتي لم تتعود على ذلك الهواء النقي وهو الذي اعتادت أنفه على رائحة البيتادين ورائحة القمامة العطنة المحيطة بالمستشفى، هل أنا في الجنة؟؟ هل نقلوا تكليفي لمستشفى دبي العام؟ أين أنا ومن جاء بي لهنا؟؟ ووسط انبهاره بذلك العالم الغريب الذي تواجد فيه سمع صوتا من خلفه:

- لماذا تبحث عن اسمي؟

- وقد تسارعت نبضات قلب منصور ملتفتا بحذر للخلف واتسعت عيناه ليجد الراقد يبتسم إليه في هدوء وعطف وقد استعاد وعيه مكررا نفس السؤال على مسامع

- لماذا تبحث عن اسمي؟

- كي أعرف من أنت.

- وهل ذلك سيفيدك؟

- أنا طبيب وواجبي يحتم علي الوصول لتشخيص حالتك كي تُشفى.

- وهل تراني أريد أن أُشفى.

- بالطبع لا أحد يريد أن يظل مريضا.

- إذن من اليوم اعتبر اسمي لا أحد.

- لماذا؟؟ أنت شاب في مقتبل عمرك ويبدو أنك من عائلة محترمة ولا يزال المستقبل أمامك طويلا، يبدو أنك لست متزوجا فملابسك الأنيقة والتي تبدو غالية الثمن لا تتفق مع كونك متزوجا.

رد الراقد ضاحكا:

- إن كنت كذلك فمن الأولى أن أظل على حالي.

- ولكنها سنة الحياة.

يقولها منصور ولسان حاله أنه يحسد الصرصور الذي وجد منزلا لعشيرته في الوقت الذي لا يجد وهو طبيب حتى لو كهفا يؤسس فيه حياته الخاصة.

- ومنذ متى تكون سنة الحياة عادلة؟ فالبقاء للأقوى والفاجر هو المنتصر.. لا مجال للحق فالمدينة الفاضلة لم ولن توجد.

- لماذا اليأس؟؟؟ فالتغيير يحدث في يوم وليلة.

- العمر أقصر من إقناع الحمار أنه حمار.

- لكن يا صديقي،

فجأة دق جرس هاتف منصور ليقوم فزعا ليجد نفسه كما كان مجاورا للراقد، فرك عينيه كي يرى من يتصل به متوعدا المتصل إن كان من شركات التأمين على الحياة التي تعدك بتعويضات مالية ضخمة فقط فلتمت أو تصاب بعجز كلي ونحن سنعوضك أو نعوّض ورثتك دون كلل أو ملل أو اتصال من مريض تذكر بعد ثلاثة سنوات أن يطمئن على معدته، متوعدا إياهم بكلمات يعاقب عليها القانون، ولكن بدا أن المتصل مصر على الاتصال:

- آلو من معي؟

- حضرتك د. منصور؟

- نعم هو بسماعته.

- الحمد لله أنك هو، أرجوك أريد الاطمئنان على "كريم الشرقاوي"، لم أستطع الانتظار حتى أصل إليك في المستشفى، بالله عليك أخبرني كيف هو،

- من كريم الشرقاوي هذا؟؟؟ لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

- ذلك الشاب الراقد في غيبوبة والذي نشرت صورته على الفيسبوك.

هنا ارتجف منصور ولم يستطع منع دموعه فها هو قد اقترب من معرفة هوية ذلك الراقد فأكمل حديثه مع المتصل بصوت مبحوح:

- إذن اسمه كريم، ما هي قصته ومن أنت؟؟؟؟

- سأخبرك بكل شيء ولكن أخبرني أولا كيف هو الآن؟

- لا جديد فهو في غيبوبة تامة وإن كانت وظائفه الحيوية جيدة جدا والفحوصات الأولية تنبئ أنه لا مرض عضال لديه.

- الحمد لله أرجو أن أصل قبل فوات الأوان.

- أين أنت الآن؟

- في غضون نصف الساعة سأصل إليك، رجاء انتظرني.

- بل أنت رجاء لا تتأخر.

أغلق منصور المكالمة ناظرا للساعة العتيقة متوسلا إليها الإسراع كي يأتي من يدلنا على كريم المنياوي، عفوا هو لم يقل منياوي بل قال غرباوي، كلا كلا بل قال شرقاوي، أيا كان اسمه فلننتظر كي نعرف من هو.

لم يتحرك منصور من جوار الراقد منتظرا وصول المتصل، وكعادتها مرت الدقائق متثاقلة الخطى مما اضطر منصور أن يجلس على باب المستشفى لعل وعسى تنقضي الدقائق، وفجأة سمع وقع أقدام من خلفه تبعها صوت أجش:

- حضرتك الضاكطور منصور؟

نظر منصور خلفه ليجد شابا في العشرينيات مرتديا بنطالا من الجينز المرقع تتدلى من فمه سيجارة مشتعلة رابطا بعض السلاسل الغريبة

حول عنقه فرد عليه منصور بحذر حيث أن آثار الندبات التي على وجهه تدل أنه أحد أبطال العالم في المشاجرات:

- نعم أنا منصور، ماذا تريد؟؟

رد الشاب وقد تبدل حاله فصار صوته أقرب للبكاء:

- أنا من اتصلت بك بخصوص كريم الشرقاوي؟

تراجع منصور للوراء قليلا ولسان حاله يقول يا لي من أحمق كيف أصدق أن هذا الشاب البلطجي يعرف ماهية ذلك الراقد الوسيم، لم يدع الشاب فرصة لمنصور أن يفكر في الرد قائلا بحرقة وقد انهمرت دموع بدت صادقة من عينيه:

- أرجوك دعني أراه، دعني أكفّر عن خطيئتي بحقه.

- سأجعلك تراه فقط أخبرني بقصته.

رد الشاب:

- سأقص عليك كل شيء، كل شيء، فقط دعني أراه.

رق قلب منصور للشاب وأشار له بحذر نحو إحدى الغرف التي يرقد بها "كريم الشرقاوي" حسب قول الشاب، و سار بجانبه متوجسا فقد يتهور ذلك الشاب كعادة الكثير من أهل المرضى فيتم التضحية بالطبيب والتهمة أن الطبيب قد تسبب في إصابة المريض بشلل أطفال أو ما شابه، فلا أحد مخطئ سوى الطبيب، ولكن سرعان ما تبددت مخاوف

منصور، حيث ما إن رأى الشاب غريب الأطوار جسد كريم راقدا في سكينة حتى انكب على يديه يقبلهما وقد سال الدمع مدرارا وهو يقول:

- سامحني يا أستاذ كريم، لم أعرف قيمتك، أنا لا أستحق أن أكون الإنسان الذي تمنيته فيّ، لا أعرف كيف سأعيش حياتي بعد الآن، عُد وسأكون كما تريد، فقط أسمعني أنك سامحتني..

لم يستطع الشاب إكمال حديثه بعد أن غالبته الدموع وسقط جاثيا على ركبتيه في الوقت الذي لم يعطف عليه الراقد فلم يحرك ساكنا أو ينطق بكلمة تريحه.

هنا ربّت منصور على كتف الشاب المنتحب قائلا:

- تعال معي لكي تحكي لي من هو كريم الشرقاوي لعل وعسى نجد خيطا يدلنا على شفائه.

خرج الاثنان من الغرفة واتجها لسليم بعيدا عن ضوضاء المستشفى وطنين ذلك البعوض المزعج والفضول يقتل منصور كي يعرف حكاية كريم الشرقاوي.

مرت الدقائق بطيئة على منصور في انتظار أن يهدأ نحيب ذلك الشاب طالبا من سليم كوبا من النعناع الدافئ ليهدئ من روع الشاب، وبالفعل ما هي إلا دقائق بسيطة وهدأ الشاب

- أفضل الآن يا..؟ عذرا ما اسمك؟

رد الشاب:

- إبراهيم الدوكش.

- أما آن أن تخبرني عن كريم الشرقاوي؟

- بالطبع سأخبرك، لكن رجاء لا تبخل بالعلاج على كريم وما تطلبه سألبيه لك مهما غلا ثمنه.

- لا تقلق، فقط أخبرني من هو كريم الشرقاوي.

رد إبراهيم الدوكش بعد أن استجمع قواه وهدأ نحيبه:

- إنها قصة طويلة هل لديك من الطاقة للاستماع إليها؟

- كلي آذان صاغية.

وبدأ إبراهيم يروي الحكاية.

(٣)

لا يعلم كثير من أهل الحارة من هو ذلك الشاب الوسيم الذي انتقل للعيش منذ فترة قريبة للعيش بالحارة، فالحارة يعرف أهلها بعضهم وبالطبع فطنوا سريعا لوجود شاب غريب يسكن بمفرده، وكعادة المصريين انتشرت الإشاعات كالهشيم، فمنهم من يقول أنه شاب قادم من الصعيد هربا من ثأر قديم، وذاك يؤكد أن هذا الشاب قد هرب من فتاة أحبته وتركها النذل بعد أن سلبها أعز ما تملك مُتبعين ذلك بأغلظ الأيمان في الوقت الذي لا يملك أيّا منهم دليلا واحدا على كلامهم، ولكنها كعادتنا لا نستطيع أن نعترف أننا لا نعرف.

مرت الأيام وبدأ أهل الحارة يألفون الوافد الجديد وعرفوا اسمه وأنه يدعى "كريم الشرقاوي" ويعمل مدرس رياضيات بإحدى المدارس الخاصة، فما وجدوا منه إلا كل خير، يبتسم في وجه الجميع، يلعب الكرة مع الأطفال في الشارع، يساعد العجوز على حمل أغراضه، يطعم القطط الجائعة، وإن كان كل ذلك لم يشبع فضول أهل الحارة لمعرفة الوافد الجديد.

- سأغير الواقع يا سعيد.

نطقها كريم الشرقاوي بحماس شديد وهو يعرض حلمه على زميله سعيد المسيري.

- لن يكون سهلا.
- سأحاول.
- قد تفشل.
- وقد أنجح.
- الطبع سيغلب التطبع.
- ولكنه في الأصل إنسان.
- ولكن إنسان مشوه.
- مهما كان مشوها فلديه بذرة نقية.
- أتريد أن تقنعني أنك ستحول تلك القنابل الموقوتة لأزهار تنبت الياسمين والفل.
- لن تنبت الياسمين والفل فقط بل ستصير حدائق غنّاء.
- قلبي معك ولكن احذر فمهما أطعمت الثعبان فقد يلدغك يوما.
- ذاك هو حلمي يا سعيد ويكفيني إن لُدغت أن أكون قد حاولت أن أعيد للإنسان إنسانيته، لا أحد يولد بلطجي.
- حلم جميل أن تحوّل البلطجي لإنسان سوي في زمان ساد فيه الفاسدون وعلا صوت الباطل والفهلوة حيث لا مكان للضعيف إلا تحت الأقدام والمحترم في نظرهم "عبيط"، بمالك تُفتح لك الأبواب المغلقة، أما عن علمك فيُغلق أمامك كل الأبواب فهو لم يعد حتى يُكيّل بالبتنجان لكن استيقظ واعلم أنك لا تعيش في يوتوبيا.

- لن أيأس وقد بدأت بالفعل تجربتي.

- كيف ومن أين بدأت؟

- أتعلم ذلك الشاب الذي يقف دائما متسكعا على مدخل الحارة؟

- أتقصد ذلك الشاب الذي يرتدي السلاسل الغريبة وندبات السكاكين في وجهه كلوحة سيريالية؟

- نعم إبراهيم الدوكش، هذا هو تجربتي.

- لكنه بائع مخدرات!!

- وهل تظن تجربتي يجب أن تكون مع بائع سبح؟ أعلم أنه بائع مخدرات، فلك أن تتخيل كيف سيستفيد المجتمع من تحول بائع المخدرات لإنسان صالح، ولأنه سيذوق معنى الصلاح فسيحاول الإصلاح معي على الأقل لأهله وأصدقائه.

رد سعيد مبستما:

- وماذا لو تحولت أنت لتاجر مخدرات؟

قال كريم مبادلا إياه الضحكات:

- لا تقلق يا صديقي فالخير سيحمي صاحبه.

- وكيف بدأت تجربتك مع الدوكش؟

- كنت عائدا من المدرسة يوما ما أحمل بعض الفاكهة متأخرا، فالطرق مزدحمة فوق العادة، فاليوم قد يصبح اليوم الأعظم في تاريخنا، اليوم الذي سيجعل العالم يقف إجلالا لمصر، ذلك اليوم الذي تغنت به الست

أم كلثوم "وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحدي"، فاليوم قد تصل مصر لكأس العالم والجميع في ترقب، وبأعجوبة وصلت لمدخل الحارة حيث وجدت الحارة بأكملها متسمرة أمام الشاشات في انتظار الهدف المنشود فلا صوت لصريخ ابن يومين كما يقولون، ولكني فجأة سمعت صوت تأوه شديد فنظرت حولي لأجد إبراهيم الدوكش ملقى على الأرض والدماء تسيل من وجهه بغزارة فذهبت إليه سريعا لأجد وجهه قد ظهرت فيه ندبات جديدة تنبئ عن تعرضه لاعتداء بأدوات حادة ولكن الإصابات غير مميتة مما يوحي بأن المعتدي لا يريد قتله بل فقط يوصل له رسالة، فمددت يدي للدوكش كي أساعده على النهوض لكي نذهب للمستشفى كي نعالج جروحه فأجاب بصوته الأجش بصعوبة رافضا كي لا يتم تحويله للنيابة، طالبا مني فقط توصيله للمنزل، واستند على كتفي ومشينا في أزقة ضيقة حتى تكاد لا تسعنا نحن الاثنين أثناء سيرنا حتى وصلنا لبيت متهالك يجلس أمامه عجوز يمد قدميه المتورمتين ويبدو عليه أنه من المرضى أصحاب الملف الكبير كما يقول الأطباء حيث قد أصاب المرض أغلب أجهزته الحيوية، وإن كان قد ألقى كل هذا جانبا مستمتعا بدخان السجائر المتراقص كفتاة لعوب أمام ضوء مصباح أصفر يجتمع حوله البعوض في سيمفونية تنبئ عن قذارة المكان، نظر إلينا العجوز في لا مبالاة قائلا للدوكش:

- لا فائدة أيها الحيوان لقد سرقتَ من المال الذي بعت به المخدرات، أتظن أنك ستغالط أولئك المجرمين؟؟؟ إنهم أساتذة للأبالسة، عقولهم فاقت الوساوس، ضمائرهم لم تمت فحسب بل تلومهم على ترك الشر، لا يقبلون بالخيانة، دمك لا قيمة له، هم أسياد المكان، لا تنظر لهم وأبق عنقك منخفضا إذا كنت تريد أن تبقيه على كتفك، فلتلتقط بلسانك ما يلقى على الأرض من فتات كلابهم، ولتعلم أن بقاءك حيا هو تفضل منهم، لا تحدثني عن دينهم فهم يحملون السبحة طوال الوقت بل ويذهبون للحج كل عام، أرجو أن تكون قد وعيت رسالتهم لأنه ببساطة لا مجال برسالة أخرى.

لم يأبه إبراهيم لكل ما قاله العجوز ليشير إليّ للدخول إلى ذلك المبنى المتهالك لنرى بيتا –إن جاز التعبير على كونه بيتا– ذا جدران مشققة بفعل الزمان، سقف خشبي متآكل من فعل الأمطار ليملأ المكان برائحة عطنة تكفي لكي تسد رئتيك ما بالك لو اختلطت برائحة السجائر الرديئة وبرائحة منبعثة من ركن مظلم، لا يحتاج المرء لذكاء لمعرفة عن كونه دورة المياة، وأشار إبراهيم لمجموعة من الكراتين الخاوية المرصوصة فوق بعضها وملقى عليها ملاءة ممزقة ففهمت أن هذا هو سرير الدوكش وسرعان ما ألقى جسده المثخن بالجراح مطلقا زفرة ألم تنبئ عن تعرضه لآلام شديدة.

نظرت حولي لأجد زجاجة مياة أو كما يبدو لي فأعطيتها إياه كي يرتشف رشفات من الماء ووضعت بعض من الماء بين يديّ كي أحاول تنظيف جراحه وغسلت له بعض الفاكهة وأعطيته إياها فتناولها بعد إلحاح مني ثم أسند رأسه وقد بدا أن الألم قد قل نسبيا وأومأ برأسه شاكرا فأشرت له أن لا بأس بإذن الله ستشفى، وفجأة دخلت علينا طفلة ذات خمسة سنوات تقريبا، بدا من شعرها المجعد أنها لم تستحم منذ فترة ناهيك عن عدم تمشيطه منذ أن ولدت تقريبا، فارتمت في أحضان إبراهيم تبكي قلقا عليه من هول ما رأت من جروح فداعب إبراهيم شعرها المجعد مطمئنا لها أنه بخير وسيشفى متبعة نظراتها بحذر إليّ متسائلة من أكون فقال لها إبراهيم لا تقلقي فهذا الأستاذ المحترم هو من أنقذني فلم ترد في حياء طفولي جميل أعاد لوجهها رونقه رغم التراب العفن الذي يغطي أغلب وجهها.

هنا تركت إبراهيم يتسريح تاركا له رقم هاتفي إن احتاج لشيء واعدا إياه بالعودة لزيارته في اليوم التالي إن بقي في العمر أنفاس.

- وهل تظن أن ما فعلته مع إبراهيم سيغير من الوضع شيئا؟؟ أنت واهم، هؤلاء المسحوقون تحت وطأة شظف العيش لا هم لهم إلا لقمة اليوم حتى لو كانت من فم أخيه بل ولو من فم أمه ولا يهم إن كانت حلالا أو حراما فذلك ليس في تفكيرهم من الأساس.

- هؤلاء مظلومون، ظلمهم الجميع، نسوا أو تناسوا أن هؤلاء بشر لديهم حق الإنسانية على الأقل، لن أتركهم لأظلمهم مع من ظلموهم، سأُرْبي بذرة الخير التي في قلوبهم ومهما طال الزمان فسيأتي يوم تتنسم فيه البذرة الهواء النقي وتضطلع بالماء الزلال فتنبت كشجرة تظلل من حولها لتتحول الأزقة الضيقة لحدائق غنّاء يطيب شذاها في الآفاق.

- كما تشاء ولكن احذر فالبذرة قد تنبت شيطان.

- وقد تنبت رياحين.

- لا تنس أني نصحتك.

- سأتذكر ذلك وأنا أتنسم الرياحين.

عاد كريم من عمله في موعده المعتاد ولم يتوجه لمنزله ولكنه توجه لتلك الأزقة الضيقة معتمدا على ذاكرته كي يصل لمنزل الدوكش، ولم تكن العملية سهلة، فأكوام القمامة المتراصة بين البيوت المتهالكة جعلت الأمر أصعب، وبعد السؤال استطاع الوصول لبيت الدوكش، وعند وصوله وجد العجوز المدخن كما هو يجلس في لا مبالاة مدخنا سيجارته الرديئة، ولكن سمع كريم من ينادي عليه مرحبا فنظر لمصدر الصوت ليجد تلك الطفلة الرقيقة تأتي إليه مبتسمة في خجل أعاد لوجها الشاحب نضرته الضائعة وهي تشير إليّ كي أتبعها لأجد الدوكش قد أسند ظهره للبيت وهو يدخن سيجارة بدا من شكلها أنها كما يقولون "سيجارة ملفوفة"، وبمجرد أن رآني وضع السيجارة جانبا وحاول القيام

رغم آلامه فأشرت إليه ألا يقوم وحاول أن يجد شيئا نظيفا كي أجلس عليه ولكني جلست بجواره دون انتظار:

- هذا لا يليق بك يا أستاذ.

- التراب هو الأصل منه خلقنا وإليه نعود.

- لا أعرف كيف أشكرك يا أستاذ، عفوا أنا لا أعرف اسمك.

- كريم، اسمي كريم الشرقاوي.

- شكرا لك يا أستاذ كريم.

- هذا واجبي يا، عفوا وأنا لا أعرف اسمك.

- اسمي إبراهيم محمود، أو إبراهيم الدوكش، فكل منا في هذا المكان له لقب ويجب أن يكون اللقب ذا قوة وصلابة فلكل من لقبه نصيب.

- آنستنا وشرفتنا يا عم الدوكش.

- وكيف لمثلي أن يشرف مثلكم؟

- الإنسان يشرّف أيّا كان.

- هذا لو كان إنسانا وليس بلطجيا مثلي.

- الظروف هي التي صنعت منك بلطجيا.

- لن يفيد من السبب، الواقع الآن يقول أني بلطجي.

- الواقع قابل للتتغيير.

- الظروف أقوى.

- بل إرادتك أقوى، إن كنت تريد التغيير سيحدث ذلك.

- لا تضيع وقتك، فقط لا أعرف كيف أشكرك.

- شكري أن تكون إنسانا سويا.

- قل ذلك للظروف، قل ذلك لأبي الذي تركني أنا وأختي الصغيرة لأمي وجدي وهرب ولم نعرف عنه شيئا، قل ذلك للمشفى الذي ترك أمي تموت على أبوابه بحجة أننا فقراء وليس معنا أموال، قل ذلك لجدي المريض الذي أفنى كل ما يملك على المخدرات والقمار، لا تظن أني أبيع المخدرات لأني محتاج للمال فقط، بل أبيع لكي يعلم الجميع ما فعلوه بي، انظر لتلك الطفلة الرقيقة بجسدها النحيف بما يحيط بها من نقص الغذاء والأمراض التي تتسكع في أكوام القمامة من حولنا، ما ذنبها؟ ومتى سيشعر المجتمع بها؟ لا أعتقد أنه يعلم بوجودها أصلا لذا يجب أن نخبره نحن عنوة بوجودنا.

- لا تظلم المجتمع فالظروف يعلمها الجميع والآن بيدك الفرصة كي تصلح من نفسك إن أردت.

- كيف أصلح من نفسي بعد كل ما فعلت؟؟

- سأساعدك إن أردت.

- فلنجرب لن أخسر شيئا، ها أنا أمامك شاب أبلغ من العمر سبعة عشر عاما، مدخن بشراهة، أتعاطى الحشيش، لا أجيد أي مهنة في العالم، أكاد أخطئ في كتابة اسمي، يالها من مؤهلات يتهافت عليها الجميع.

- بل لديك مؤهلات عظيمة.

رد الدوكش ساخرا:

- يبدو أن عدوى تعاطي الحشيش قد وصلتك يا أستاذ كريم.

قال كريم ضاحكا:

- كلا لم تصلني، بل بالفعل تملك إمكانيات، تملك بذرة خير قادرة على صنع المعجزات، سأسألك سؤالا واحدا وأجبني بصراحة.

- سل كما شئت.

- هل يعجبك حالك الذي أنت عليه الآن؟

- بالطبع يعجبني فأنا فاشل في كل شيء، ليس لدي أي أمل في الغد، لا أملك وظيفة محترمة تعينني على العناية بتلك الصغيرة، بالطبع لا تحدثني عن الزواج والاستقرار فتلك رفاهية لا يطمح إليها الصراصير من أمثالي.

- كلام جميل، إذن فهذه يدي عكاز لك تستند عليها لتغيير الواقع.

- سنفشل.

- وإن فشلنا فقد حاولنا.

- كيف سنبدأ؟

- استرح حتى تشفى جراحك ولديك رقم هاتفي، وسنتقابل وسأثبت لك أن بذرة الخير المدفونة في قلبك ستزهر أينما رويت بالنور.

- اعتبر أن جراحي قد شفيت فلنبدأ الآن.

- فلنبدأ.

مرت الأيام وتوطدت العلاقة بين كريم والدوكش حيث بدأ كريم في تعليم الدوكش القراءة والكتابة بل وتوسط كريم لدى صديق له يعمل في مجال الدهانات ليوفر للدوكش فرصة عمل في المحل الذي يملكه، وبدأ الوضع يتغير شيئا فشيئا، حيث بدأ إبراهيم والذي أصبح لا يريد أن ينادي عليه أحد باسم الدوكش فهو إبراهيم، إبراهيم محمود، وبدأ يقلل من التدخين فتحسنت أخلاقه وإن لم يلحظ جده هذا التغيير فجده ليس له هم إلا سيجارته وفقط.

- أين أنت يا كريم؟؟؟ أنجدني بالله عليك.

- قالها إبراهيم الدوكش بصوت بدا عليه التوتر الشديد.

انتفض كريم واقفا وقال:

- أنا بالمنزل، خيرا؟؟ ماذا حدث؟

- رد

- جدي يا أستاذ كريم، فجأة أمسك برأسه ثم ما لبث أن بدأ يتشنج ويغيب عن الوعي تماما وأنا لا أدري ماذا أفعل!

- سأكون عندك في دقائق ولكن هناك مشكلة فسيارات الإسعاف لن تستطيع الوصول لمكانك.

- سأحمله في توك توك حتى أول الطريق.

- هذا جيد وأنا سأتصل بالإسعاف، وسآتيك عند أول الطريق.

كم كان القدر رحيما حين وصلت سيارة الإسعاف بسرعة غير معتادة لينزل منها المسعفون في سرعة ليحملوا العجوز المتشنج بخواره المرعب لتنطلق سيارة الإسعاف بصوت سارينتها المزعج تشق الطرقات الوعرة فالأمر لا يحتمل التأخير فهناك روح توشك على الصعود لبارئها.

- للأسف جلطة بالمخ.

نطق بها الطبيب حينما رأى حالة جد إبراهيم.

- ونحتاج لحقنة إذابة الجلطة وللأسف غير متوفرة بالمستشفى.

- رد

- كيف لا توجد بالمستشفى؟ هل ستتركونه يموت هكذا؟؟

أمسك كريم بتلابيب إبراهيم مهدئا إياه وقال:

- لا تلم الطبيب فهو يتحرك وفق الإمكانيات المتاحة.

ثم وجه حديثه للطبيب قائلا:

- أين نجدها أيها الطبيب؟

رد الطبيب:

- حقيقة لا أعرف ولكن هناك نقطة مهمة، إن الحقنة بعد ستة ساعات من الجلطة لن تصلح شيئا وستكون الجلطة قد استقرت تماما، فلتتحركوا سريعا.

هنا انهار إبراهيم ولم يستطع الوقوف على قدميه وبدأ ينتحب خوفا على جده، الأمر الذي أثار انتباه كريم الشرقاوي الذي لم يكن يتوقع هذا الحب من إبراهيم لجده ليكمل إبراهيم بصوت مبحوح:

- عذرا يا جدي فأنا عاجز عن رد جميلك بكليتك التي تسكن الآن في جسدي، فلا أملك شيئا كي أجعلك تستريح ما تبقى من حياتك.

هنا أدرك كريم سبب الانهيار الذي بدا عليه إبراهيم وتمالك نفسه سريعا موجها حديثه للطبيب بحماس شديد:

- لا تقلق أيها الطبيب، فقط اكتب لي اسم الحقنة وسأحصل عليها مهما كان الثمن.

وما هي إلا دقائق وخرج كريم الشرقاوي من المستشفى مسرعا للبحث عن تلك الحقنة وهو يدرك تماما أن عدوه الآن هو قطار الوقت وبالطبع القطار لن يتوقف، لن يتوقف أبدا.

بدأ اليأس يتسرب لقلب كريم فقد دخل حتى الآن لأكثر من عشرين صيدلية وأجمعوا كلهم على ندرة تلك الحقن، فوقف مسندا ظهره لحائط مجاور لإحدى الصيدليات التي كسابقاتها أخبروه أنه لا توجد لديهم تلك الحقن وأخذ ينظر للسماء وهو يفكر بحال إبراهيم إذا أخبره أنه لا يجد الحقنة، وفجأة وجد أحد العاملين بالصيدلية يخرج منها متجها نحوه وهو يتلفت يمينا ويسارا قائلا باقتضاب:

- اتبعني فأنا سألبي طلبك.

لم يفكر كريم وسار خلف العامل الذي سار في طرق متعرجة حتى وصل لمخزن في شارع جانبي وهنا التفت الرجل لكريم قائلا:

- أعلم أنك تريد تلك الحقنة وهنا ستجدها ولكن بالطبع يجب أن تدفع المقابل.

- كم تريد؟ ضعف الثمن؟؟

عامل الصيدلية بسخرية:

- ضعف الثمن؟! هل حياة مريضك تساوي ضعف ثمن الحقنة؟؟ يبدو أني أخطأت الاختيار.

- لن أفاوضك اطلب ما تريد.

هز عامل الصيدلية رأسه في عطف مصطنع وقال:

- يبدو أن المريض يهمك، وللأسف قلبي رحيم، سأعطيك الحقنة بخمسة أضعاف ثمنها فقط، ولا تنس أن قلبي رحيم.

- خمسة أضعاف!!

رد عامل الصيدلية:

- طبعا، ولا تنس أن قلبي رحيم

نظر كريم في ساعته ليجد المهلة قد اقتربت من نهايتها فأسقط في يده فأخرج المال الذي كان يدخره لشراء حذاء جديد قائلا:

- كما تأمر، ها هو المال.

هنا طرق عامل الصيدلية على باب المخزن ثلاثة طرقات متصلة ليفتح له أحد الموجودين بالمخزن وأعطاه الحقنة المطلوبة.

- وها هو طلبك يا أستاذ.

التقط كريم الحقنة سريعا ونظر في ساعته وقلبه يدق في عنف فقد اقتربت مهلة الستة ساعات على النفاذ مغمغما:

- فلتتمهلي قليلا يا عقارب الساعة فجد إبراهيم يستحق الحياة.

وانصرف تاركا عامل الصيدلية ينظر للمال في ابتسامة شريرة نادبا حظه على قلبه الرحيم الذي لولاه لطلب عشرة أضعاف سعر الحقنة.

دخل كريم الشرقاوي للمستشفى وقد كاد قلبه يتوقف من المجهود الذي بذله ليرى الروح قد عادت لإبراهيم الدوكش بعد أن زاد شحوب وجهه وبدا أن عمره قد زاد ثلاثين عاما على الأقل فاحتضن كريم وهو يبكي فربت كريم على كتفه بحنان قائلا:

- اتركني كي أوصل الحقنة للطبيب فعقارب الوقت توشك على إنهاء المهلة.

- الحمد لله بدأنا نتجاوز مرحلة الخطر فالحقنة قد جاءت في الوقت المناسب.

قالها الطبيب المعالج في ارتياح، وفوجئ الطبيب بإبراهيم ينكب على قدميه يريد تقبيلها فمنعه الطبيب في عطف قائلا:

- لا تفعل ذلك يا رجل فهذا واجبي، ولكن اعلم أننا لا زلنا في وضع غير مستقر ولكن بالطبع في حال أفضل من ذي قبل.

وربت على كتفه وذهب يكمل عمله في المستشفى.

التفت إبراهيم لكريم وهو يبكي من الفرحة قائلا:

- لا أعرف ماذا أقول لك وماذا أفعل كي أرد جميلك.

رد كريم مربتا على كتفه بحنان:

- لا داعي فالعكاز لا ينتظر الشكر، فقط ننتظر أن يمن الله بالشفاء على جدك.

مرت الساعات ثقيلة على قلب إبراهيم وكريم حتى جاء موعد الزيارة في العناية المركزة، وما إن اقترب الاثنان من باب العناية المركزة حتى توقف إبراهيم محاولا التقاط أنفاسه المتسارعة فربّت كريم على ظهره مشجعا إياه بابتسامة أن الأمور ستكون على ما يرام.

- أين أنت أيها الجاحد؟؟ ولماذا تركتني في هذا المكان؟؟

قالها جد إبراهيم وهو يفتح عينيه بصعوبة.

ابتسم إبراهيم في عطف مكابدا كي لا يبكي وقال:

- لا تقلق يا جدي ستكون بخير هنا، فقد أصابك بعض الدوار، وانتظر يوما أو يومين لكي تستعيد عافيتك ببعض المحاليل.

بالفعل مرت عدة أيام وخرج جد إبراهيم من العناية لغرفة عادية ثم خرج لبيته وقد زال الكثير من آثار الجلطة بسبب الحقنة التي أحضرها كريم.

توطدت العلاقات كثيرا بين كريم وإبراهيم وصارا متلازمين في حياتهما فيلتقيان كثيرا بعد أن ينهي كل منهما عملهر وبالطبع كان كريم سعيدا فها هو يرى حلمه يتحقق أمام ناظريه.

جاء إبراهيم يوما سعيدا لكريم ليريه صورة على هاتفه المحمول فنظر كريم للصورة مبديا إعجابه بصاحبة الصورة مبتسما:

- من هذه الطفلة الجميلة؟ لم أرها من قبل.

رد إبراهيم ضاحكا بصوت عالٍ:

- بالفعل لا تعرفها؟؟

- نعم لا أعرفها، لماذا تسألني بتعجب هكذا؟

- إنها سميرة، أختي الصغيرة، لقد اشتريت لها فستانا جميلا من أول مرتب حصلت عليه، إنها جميلة بحق، لم أرها بتلك الرقة والدلال منذ أن ولدت.

قال كريم مربتا على كتف إبراهيم:

- أرأيت يا إبراهيم؟ أرأيت أنك تملك مؤهلا عظيما؟ أنت إنسان.

- شكرا لأنك وقفت بجانبي.

- لم أقف بجوارك تفضلا مني عليك.. بل هو حقك، حقك أن تكون إنسانا.

- أتعلم لدي لك مفاجأة، لقد نجحت في اختبارات محو الأمية وسأبدأ تعليمي من الصفر وسأصل للقمة كما أردت.

- الله الله، كم أسعدتني يا رجل، اثبت على الطريق وإياك أن تسمح لبذرة الخير أن تنبت شيطانا.

- لن يحدث فقد ذقت طريق الصواب ولا مجال للرجوع، لا مجال أبدا.

انشغل كريم لفترة في عمله ولم يتقابل مع إبراهيم لفترة وكان يطمئن عليه بين الفينة والأخرى عن طريق الهاتف، وفي يوم من الأيام أثناء وجود كريم بالمدرسة جاءه زميله سعيد المسيري مبتسما فقد سافر سعيد لزيارة أقاربه في محافظة أخرى وعاد متشوقا لسماع نتيجة مغامرة كريم.

- كيفك صديقي الإنسان؟؟ وهل فشلت تجربتك أم فشلت؟

- يالك من متشائم، بل نجحت نجاحا باهرا اجلس لتسمع ما حدث.

قص كريم ما حدث على سعيد بحماس شديد موضحا التغيير الشامل الذي حدث في شخصية إبراهيم وكيف أنه بدأ إيقاظ بذرة الخير في قلبه لكي يصبح إنسانا سويا.

- جيد لكن لا ترفع سقف التوقعات فالمجتمع لن يسمح لبذرة الخير أن تنبت فضلا عن أن تنتشر، فودت الزانية لو كانت النساء كلهنّ زواني.

- لا تقلق، فالخير سينتصر فنحن شعب متدين بطبعه.

- دعك من تلك المقولة التي يستتر خلفها كل الفاسدين، فالتدين للأسف لم يعد يتجاوز صلاة الجمعة وصيام جزء من رمضان مع حمل السبحة طوال الوقت مع تقديم لقب الحاج مع كل نقاش.

- فلننتظر كي نرى النتيجة وستنبهر يا صديقي.

- أفق يا صديقي فلسنا في يوتوبيا ولو كان أفلاطون حيا الآن لاتهم نفسه بالجنون حينما فكر أنه من الممكن أن يكون فيه مجتمع مثالي لا مكان فيه للخيانة أو الكذب.

- أعلم ذلك جيدا فلست درويشا، فقط أريد الإصلاح، لدي فكرة وأريد أن أثبتها.

- فقط أرجو ألا تكون الصدمة قوية عليك.

- سنرى.

وهنا لم يستطع كريم أن يداري قلقه من نجاح تجربته.

- كم هو جميل أن تكون إنسانا سويا.

غمغم إبراهيم بتلك الكلمات مشجعا نفسه على الصمود على الطريق القويم وهو عائد من عمله سائرا وسط الأزقة العطنة حاملا بعضا من أكياس الفاكهة لجده ولأخته الصغيرة ليبرز أمامه فجأة ذلك السؤال الذي يهرب منه دائما، حتى متى؟؟ حتى متى سيظل حاله هكذا فقيرا معدما بعد أن كان يمتلئ جيبه بالأموال، نعم يوقن أنها كانت أموالا حراما

ولكنها أموال تجعله يحلم بمستقبل أفضل فينتقل لمسكن آخر تزوره الشمس، مسكن يغلق على جده وأخته الصغيرة فيكون مطمئنا عليهم طوال فترة غيابه في العمل، مسكن آخر يعيش فيه كإنسان، وبالطبع لن يصل لهذا المسكن بتلك الجنيهات القليلة التي تتبقى له آخر الشهر بعد مصاريف علاج جده وباقي مصاريف البيت التي تتضاعف يوميا، فالوضع لم يكن سهلا، لم يكن سهلا على الإطلاق، ثم خاطب نفسه قائلا:

- فلننفض غبار التفكير الآن فقد اقتربت من المنزل ولا أريد لجدي وأختي أن يشعروا بما يدور في خلدي.

وفجأة تناهى له صوت صراخ طفلة ملتاعة، وفجأة تصلب الدم في عروقه فصوت الصراخ يعرفه جيدا ، إنه صوت، إنه صوت أخته الصغيرة سميرة.

لم يستطع كريم أن يتذوق طعم النوم في تلك الليلة فهو يعرف جيدا أن بذرة الخير في قلب الدوكش قد أثمرت ولكن لا يزال عودها غضا يتمايل مع الرياح، فما بالك لو عاصفة ستقتلعها من جذورها، فالآن تجربته أمام تحدٍ حقيقي إما أن تثبت وتمد جذورها أو، أو تنتهي بلا رجعة.

ألقى إبراهيم الأكياس التي يحملها وانطلق مهرولا نحو مصدر الصوت ليجد أخته الصغيرة ملقاة على الأرض وقد مزقت ملابسها الجديدة التي

اشتراها لها من ماله الحلال وحولها ثلاثة من الشباب المخمورين يتراقصون حولها في شهوانية ممسكين بسجائرهم الملفوفة والتي عرف إبراهيم من سابق خبرته أنها سجائر الحشيش، وبالطبع لم ينتظر إبراهيم طويلا فانقض على الشباب المخمورين مطلقا السباب عليهم وموجها لكماته القوية نحوهم، ولكن الكثرة تغلب الشجاعة، فانقض عليه الشبان الثلاثة بوحشية فأشبعوه ضربا في الوقت الذي لم يتحرك جيران إبراهيم لنجدته بل أغلقوا نوافذهم كي لا يصل صوت الصراخ إليهم فيزعج ضمائرهم الميتة.

أجهز الشباب المخمورون على إبراهيم وتركوه يبكي على الأرض بعد أن فقد بعض أسنانه وأصبح لا يقوى على الوقوف، وأخذ ينظر بحسرة إلى أولئك المخمورين وهم يتوجهون نحو الصغيرة التي ارتجفت في رعب وهي تنتظر مصيرها المظلم بين أيدي أولئك الذئاب، وفجأة دوى صوت رصاصة أطلقت في الهواء ليتوقف الشباب المخمورون عن تراقصهم في رعب وأطلقوا سيقانهم للريح دون انتظار معرفة ذلك القادم الذي أطلق الرصاص، فبالطبع لن يفيدهم معرفة هوية ذلك القادم بعد أن تخترق الرصاصة القادمة صدورهم.

التفت إبراهيم في وهن نحو مصدر الرصاصة ليسمع صوتا اعتاد عليه كثيرا في ما سبق:

- هل أنت بخير يا دوكش؟

- المعلم حمدان!!

رد المعلم حمدان في برود:

- نعم أنا هو، ومن غيري يستطيع أن ينقذك من براثن هؤلاء المخمورين في تلك الأزقة العطنة؟

- وكيف عرفت أن هناك من يتهجم على بيتي؟

أطلق المعلم حمدان ضحكة شيطانية عالية ثم أمسك بتلابيب إبراهيم بعنف قائلا:

- أنت هنا في مملكتي، لا يمر صرصور من هنا حتى أعرف، يبدو أنك نسيت المعلم حمدان الذي علمك تجارة المخدرات أيها الجاحد، فلتعد لصديقك الذي أفسدك علينا.

- كلا لم يفسدني بل أعاد إليّ روحي وجعلني إنسانا سويا.

رد المعلم حمدان:

- هذا جيد، أتعلم أني قد تأثرت بكلامك؟ لا عليك فليأت إذن فلينقذك المرة القادمة، بل أزيدك من الشعر بيتا، فليأتك بالأموال التي ستنقلك بعيدا عن براثن المتسكعين.

هنا أسقط في يدي إبراهيم ولم يجد ما يقوله فأردف المعلم حمدان قائلا:

- تلك الحياة التي تحلم بها مع صديقك ليست لأمثالنا ممن يسكنون في هذه الأزقة العطنة، هنا يجب أن تكون أسدا كي لا تأكلك الكلاب، قد أنقذتك هذه المرة لأنك كنت من رجالي وأنا لست رحيم القلب بما يكفي

كي أنقذك مرة أخرى، أنت تعرف مكاني جيدا، وتذكر جيدا أني لن أنقذك مرة أخرى.

ثم أخرج سيجارا من جيبه وأشعل سيجارته واختفى بعيدا عن أنظار إبراهيم الملقى على الأرض، وما إن ابتعد المعلم حمدان حتى أخرج هاتفه مبتسما في نشوة قائلا لمحدثه:

- أحسنتم يا أولاد فلتذهبوا للمقهى وستجدون مكافأتكم، واعلموا أن المرة القادمة سأترك لكم تلك الصغيرة لتفعلوا بها ما تشاؤون.

ثم أكمل استنشاق سيجارته في نشوة جنونية متمتما:

- فلنر يا دوكش إلى أي الكفتين ستميل؟

زحف إبراهيم بصعوبة نحو أخته الصغيرة والتي جفت دموعها رعبا من هول ما رأت ليحتضنها بعنف ويربت على شعرها مهدئا من روعها قائلا لها:

- لا تخافي يا صغيرتي سأكون أسدا من أجلك مهما كلفني الأمر ولن يستطيع أولئك الذئاب لمس جسدك إلا، إلا على جثتي.

ذهب كريم مبكرا للمدرسة فقد جافاه النوم ففضل أن يتنفس هواء البكور كي يعيد النشاط لجسده الواهن، وبالطبع حال إبراهيم لا يزال يشغل جل تفكيره، وبالفعل نجح الهواء العليل فيما كان يطمح إليه كريم، فقد نفض غبار اليأس عن كاهليه وحدث نفسه مشجعا إياها، كلا ستنجح التجربة، ستنبت بذرة الخير رغم مغريات الزلل ستنبت، رغم ظلمات

الفساد ستنبت، رغم ضعف النفوس التي لا زالت تتلمس طريق الحق ستنبت، ولم يترك الهاتف فرصة لكريم في الفضفضة مع نفسه، من الذي سيتصل بي الآن؟؟

- آلو، من معي؟

- رد

- لن يفيدك من أنا.

- عفوا لا أجد الوقت الكافي لكي ألهو بمسابقات تافهة أو عروض لكي أشتري أشياء لا قيمة لها.

- ولا أنا.. فقط سأسألك سؤالا واحدا، ماذا تريد؟

- لا أفهم سؤالك.

- ماذا تريد من الدوكش؟ لماذا أفسدته علينا؟

- لم أفسده على أحد فقط أردت أن يكون إنسانا.

- بل أردتَه أن ينضم مثلك لمعسكر النعاج يأكل ما يُلقى إليه من الفتات.

- هذا بفرض أنكم تلقون إليه بالولائم؟

- بل نلقي إليه نحن الفتات أيضا ولكن فتاتنا ليس كفتاتكم.

- أليس لديكم ضمير؟

- وبماذا يفيد الضمير؟ هل سيطعم الجائع؟؟ هل سيجد ثمن العلاج الباهظ؟؟

- قد لا يجد ما قلته ولكنه سيجعله إنسانا سويا.

- لست في مجال للنقاشات الفلسفية ولكني أحدثك فقط لأقول لك إن تجربتك قد فشلت.

- ماذا تقول؟

- كما سمعت، عد لمنزلك وانظر تحت منضدة الطعام وأخبرني ماذا وجدت.

- منزلي!!

لم يكمل كريم الحديث فقد أنهى المتصل المكالمة في صفاقة.

عاد كريم أدراجه سريعا لمنزله ليجد البيت كما تركه صباحا وتوجه نحو منضدة الطعام ونظر تحتها ليجد تحتها حقيبة سوداء صغيرة وحين فتحها وجد بها كيسا بلاستيكيا صغيرا به مادة بيضاء ورسالة بها جملة

واحدة "لقد فشلت تجربتك الواهية" وسرعان ما رن هاتف كريم ليجد نفس المتصل السابق يتحدث بنبرة سخرية:

- هل رأيت الحقيبة؟

- نعم، من الذي وضع الحقيبة في منزلي؟

- لا تدعني أشك في ذكائك، يجب أن تكون علمت ذلك.

- أتقصد إبراهيم؟

- الدوكش وليس إبراهيم.

- أنت تكذب.

- اتصل به وستعلم أنه هو من وضع تلك الحقيبة التي بها الهيروين في منزلك بل وهو من اتصل بالشرطة والتي ستظل إليك في لحظات.

- الشرطة!!!

- لا أعتقد أن لديك وقتا كافيا للنقاش، غادر منزلك ولا تعد إن أردت النجاة لأن هناك حقيبة أخرى مخبأة في المنزل.

- إنك تكذب.

رد المتصل بصرامة:

- إذن ابق في مكانك ولا تلومنّ إلا نفسك.

وأنهى المكالمة بنفس الصفاقة.

ابتسم كريم محدثا نفسه في سخرية ما هذه الصفاقة؟؟ حتى المجرمين ذوي الدم الخفيف كعادل أدهم ومحمود المليجي لم يعودوا موجودين؟؟

حاول أن يهرب من الأسئلة التي يكاد عقله ينفجر بحثا عن إجاباتها، هل بالفعل أقدم إبراهيم على هذا؟؟ هل أخطأ أنه ظن أن الخير من الممكن أن ينتصر؟؟ فلنقطع الشك باليقين ولنتصل بإبراهيم، وعلى غير العادة لم يرد إبراهيم فعاود الاتصال ليجد هاتف إبراهيم مغلقا فأكمل حديثه مع نفسه مشجعا إياها "لا تقلق فالتجربة ستنجح يوما ما".

مرت الدقائق مسرعة وكريم قد فقد قدرته على التفكير، هل يصدق كلام المتصل ويهرب؟ أم ينتظر فلعلها تكون مكيدة من أولئك المجرمين؟ إلى أن استقر أن يخرج من المنزل ويختبئ عند مدخل الحارة ليرى إن كان الأمر باستدعاء الشرطة حقيقيا أم هراء، ولم يكد يطأ من بوابة البيت الذي يسكن فيه حتى تناهت لمسامعه صوت سارينة الشرطة كذئاب تعوي مهرولة نحو فريستها، وأسقط في يد كريم فلم تكن ثقة المتصل

من فراغ، وبالفعل ترك المنزل سريعا متجها نحو مدخل الأزقة التي يعيش بها الدوكش حيث هذا المكان لا تعلمه الشرطة بالتأكيد، وسرعان ما اختفى داخل الأزقة الضيقة تاركا منزله مباحا لرجال الشرطة الذين وصلوا لمكان حقيبة الهيروين كما تم إبلاغهم، وبالطبع ما هي إلا دقائق واجتمع أهل الحارة حول منزل كريم على وقع الحوار الدائر بين سيدتين في شرفتيهما مصحوبا بمصمصة الشفاه المعتادة ليخرج حوارهما بنتيجة قاطعة أن هذا الكريم هو زنديق متخف في ثياب بشر رغم أن أحد السيدتين طالما لهج لسانها بالدعاء له بعد أن أنقذ ابنها من الموت بعد أن كادت تدهسه سيارة مسرعة، ناهيك عن الصرخة التي دوت في جنبات الحارة والتي ظن البعض أنها لقائد إسبرطة القديمة حينما أحرز هدف الصعود لكأس العالم وتبين أنها من حنجرة الحاج مسعود المنياوي صاحب القهوة التي يتسكع عليها الشباب لتدخين الحشيش طوال اليوم حين ضرب على قلبه الذي كاد يتوقف يوما من الأيام لولا كريم الشرقاوي الذي حمله للمستشفى بين الحياة والموت ليعلنها بصوت عال أنه -أي الحاج مسعود- أن نظرته الثاقبة في البشر صحيحة حيث لم يسترح قلبه ولو للحظة لذلك الشاب وقال إنه منذ أن جاء هذا الشاب والنحس قد لازم الحارة ففسد الزرع وامتنع المطر من السماء.

هتف أهالي الحارة للعدالة التي أنقذتهم من ذلك المجرم عتيد الإجرام وسط أمطار من الحلوى المصحوبة بسيمفونية أوبرالية من الزغاريد المنطلقة من حنجرة الحاجة أم سعد والتي كان ذلك الحقير كريم يعطي ابنها سعد دروسا خصوصية دون مقابل كي لا يُطرد من المدرسة بعد استنفاذه مرات الرسوب.

لم يستطع كريم التوقف رغم أن كاد قلبه يتوقف فالوقت الآن أغلى من الذهب، فالتوقف معناه السجن مدى الحياة، إلى أن قادته قدماه نحو منزل صديقه الوحيد سعيد المسيري الذي لعطف القدر قد انتقل لمنزل جديد لا يعرفه أحد إلا هو وإبراهيم، وما إن دلف كريم لمنزل صديقه حتى تسمّر مكانه ليجد إبراهيم مسندا ظهره للحائط وقد بدا عليه أنه قد عاد دوكشا من جديد مدخنا سيجارة باستمتاع، حينها أسقط في يد كريم وقد أدرك أنه هزم بالضربة القاضية، فقد أتته الخيانة من ظهره وثبت أن بذرة الخير لم تستطع أن تقف أمام طغيان المجتمع.

- توقعت مجيئك لهنا.

- لماذا فعلت بي هكذا؟ لم أرد إلا أن أراك إنسانا سويّا.

- الإنسان السويّ لا يجد قوته في مجتمعنا.

- اصبر وستجد أنه الأمور تتحسن.

- لن أصبر بعد اليوم ففتات الحلال لن يحميني أنا وأهلي.

- وماذا تريد مني الآن؟ هل تريد أن تسلمني للشرطة؟

رد الدوكش بابتسامة ساخرة:

- وهل يختبئ تاجر المخدرات في كنف الشرطة؟

- إذن ماذا تريد؟؟

- جئت لأعطيك هذا.

وألقى إلى كريم مظروفا به بعض مئات الجنيهات.

- ما هذه الأموال؟؟ هل ستجعلني أعمل معك في بيع المخدرات؟

- كلا، للأسف لا يصلح أمثالك لذلك، هذه الأموال كانت في بيتك فقسمتها بيني وبينك كي لا تظن بي أني ليس بي بذرة خير.

رد كريم مبتسما في حسرة:

- شكرا لك، ولكني لا أريد هذا المال، فقط اغرب عن وجهي وأكمل في طريقك الذي اخترته بنفسك ولكن لا تلومن إلا نفسك.

رد الدوكش ساخرا:

- لا تقلق لن ألوم نفسي ولكي أكمل معروفي لن أبلغ عنك الشرطة اليوم، ولكن قد يكون غدا، وأخذ باقي المال وخرج.

استند كريم على الحائط كي لا يسقط بعدما استنزف قوته وصعد بصعوبة مغالبا دموعه ليطرق الباب على صديقه سعيد المسيري الذي فوجئ بالحالة المزرية التي يظهر عليها صديقه النقي فأسنده حتى أجلسه على أقرب أريكة.

قال سعيد بلهفة:

- ماذا بك صديقي الحبيب؟؟ ما الذي حدث؟؟ لماذا ترتجف هكذا؟؟ أنت تبكي؟؟

- قد انتهت التجربة، كم كنت مخطئا؟ للأسف لم أستمع لصوت العقل الذي أخبرتني به يا صديقي، وقص عليه ما حدث.

رد سعيد مغالبا دموعه:

- لا عليك صديقي الحبيب.. قد حاولت ولكن المجتمع لا يرحب بالأنقياء، استرح سأشتري لك بعض الفاكهة عساها ترد إليك روحك المنهكة، نم قليلا حتى أعود.

- افعل ما شئت، اذهب ولا تتأخر سأحاول أن أنام.

ارتدى سعيد ملابس الخروج سريعا لكي يشتري طعاما لهما في الوقت الذي اتكأ فيه كريم على الأريكة ناظرا للسقف مترجعا شتات نفسه ولكن الهاتف اللعين كان له رأي آخر ليصدر صوته المعدني الرتيب منبئا بمكالمة آتية فمدّ كريم يديه بصعوبة ليلتقط الهاتف ليجد المتصل الصفيق يتصل به مرة أخرى.

- هل وجدت كلامي صحيحا؟

- لماذا اتصلت بي كي تحذرني؟ هل تتعاطف معي؟؟ فمعلوماتي أن الحدأة لا تلقي بالكتاكيت.

- بالطبع لا ولكن قد تعتبرها بمثابة رقصة المنتصر.

- أتسمي هذ انتصارا؟

- بالطبع أما ظهر أمام عينيك فشل تجربتك؟

- قد تفشل يوما وقد تنجح مرة أخرى.

- ستجدني في كل تجربة كي أفشلها.

- طالما تريد إفشالي هكذا، لماذا لم تتركني للشرطة للقبض عليّ متلبسا؟

- كي تكون عبرة لمن خلفك كي لا يفكر أحدكم بما فكرتَ فيه، كي لا يفكر أحد في التطلع لأسياده فقد كانت كما يقولون قرصة أذن بسيطة وقد يأتي من بعدي من لا يقرص الأذن بل يقطع الرأس كلها.

وكعادته أغلق الخط بصفاقة.

- سنرى أيها الصفيق، سنرى.

أخذ كريم نفسا عميقا ثم أخذ ورقة وقلم ليكتب رسالة لصديقه سعيد المسيري "اعذرني لأني لم أستمع لحديثك ولكن التجربة ستستمر وستنجح، الوداع يا صديقي". هنا أغلق كريم هاتفه وألقى الخط جانبا طاويا مع الخط صفحة انتهت من حياته في انتظار فتح صفحة جدية ليستجمع ما بقي له من قوة ليخرج من الباب بلا عودة.

لم يستطع د. منصور منع دموعه المختلطة بمشاعر الغضب ولولا دموع الندم التي تنهمر من عين الدوكش لأفرغ في رأس الدوكش خزينة كلاشينكوف كاملة، ومرت ربع ساعة إلى أن استطاع الدوكش استجماع أنفاسه متوقفا عن النحيب مخاطبا د. منصور:

- تغيرت حياتي بعد هذا الموقف، تركني أولئك المجرمون دون عمل وكان قولهم "من خاننا مرة سيخوننا أكثر من مرة، واعلم أنه إذا فكر

لسانك أن يقرّ بما حدث فلن يبقى رأسك مكانه فضلا عن لسانك" الآن علمت عظم الذنب الذي أذنبته في حق كريم ولكن للأسف علمت ذلك بعد فوات الأوان.

- لا أعرف ماذا أقول فيبدو أن الراقد أو كريم الشرقاوي قد لاقى من الأهوال ما يجعله مرتاحا في غيبوبته بعيدا عن ذلك العفن الذي كان يعيش فيه.

- هل من الممكن أن يخرج كريم من الغيبوبة؟

- لا سبيل لدينا سوى الانتظار لعل الله يأذن بالشفاء.

- يااااارب، رقمي معك يا دكتور ولو رأيت أن روحي ستشفي كريم لن أتأخر أبدا عن إعطائها له، لعل وعسى أن أعود إنسانا كما كان يريد.

مرت الأيام رتيبة ولا جديد يذكر في حالة كريم وانتظم مرور الدوكش عليه آملا في أي بارقة أمل تعيد لكريم يقظته المفقودة، وفي أحد النوبتجيات الهادئة التي قد انتصف ليلها وأثناء تواجد د. منصور مع سليم بائع الشاي رنّ هاتفه المحمول ليجد صوتا رتيبا:

- هل حضرتك د. منصور؟

- نعم أنا هو.

- أخبرني، ما حالة كمال عبد الرحمن؟

- من كمال هذا؟؟ لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

- إنه ذلك الراقد الذي نشرت صورته على الفيسبوك.

- اسمه ليس كمال عبد الرحمن بل اسمه كريم الشرقاوي، يبدو أنك تتصل برقم آخر.

- كلا بل هو كمال عبد الرحمن لن أخطئ فيه، لن أخطئ فيه أبدا، انتظرني فأنا قادم إليك الآن.

قال د. منصور محدثا نفسه:

- كمال عبد الرحمن!! يبدو أن الليل سيكون طويلا، طويلا للغاية.

(٤)

- أحضر كوبا من الشاي بالنعناع يا سليم..

قالها د. منصور وهو ينظر بريبة لذلك الأربعيني الذي يجلس متأنقا بملابس بدا عليها الفخامة وحذاء يشبه الحذاء الذي يحلم منصور بشرائه قبل مناقشة الماجستير وذلك على أريكة سليم المتهالكة مدخنّا سيجارا كوبيا.

- ماذا تريد من كريم الشرقاوي يا أستاذ؟

رد الأربعيني:

- أريد أن أطمئن عليه..

قال منصور بريبة:

- من أنت؟

رد الأربعيني وقد أطلق من فمه دخان السيجار الكوبي في استمتاع:

- لا يهم من أنا، أعلم أنه في غيبوبة ولا يفيق، أيّا كان السبب هاتفي لديك إذا احتجت أي شيء فلتتصل بي.

- لن أتصل بأحد من أراد أن يطمئن عليه فليأتني.

- هاتفي معك ولو احتجت لشيء اتصل بي، ثم قام من مجلسه في تعالٍ واضح مرتديا نظارته الشمسية تجاه سيارته الفخمة والتي انطلق سائقها بمجرد ركوب الأربعيني.

عقّب سليم:

- ياله من قليل الذوق!! من هذا الرجل يا دكتور منصور؟

- لا أعلم يا سليم ولكن قلبي غير مرتاح لذلك الرجل أخشى أن يصيب كريم بسوء..

ثم أمسك بالكارت الذي أعطاه إليه الأربعيني ليجد اسم "عصام رضوان".

قال سليم:

- لا أعتقد، يبدو أنه يعلم عنه الكثير ولو أراد قتله ما كان ليأتي بنفسه لهنا.

- حقيقة لا أعرف، عقلي يعجز عن التفكير، يبدو أن قهوتك لم تعد توقظ كومة القش الرابضة في جمجمتي..

قالها منصور بابتسامة حزينة تخفي خلفها أكواما من التساؤلات التي لا يجد لها إجابة.

مر يومان على ذلك اللقاء مع الأربعيني الغامض لم يحدث فيهما أي جديد، اللهم إلا اتصالات متفرقة لأناس بلهاء يعبثون بحثا عن شهرة زائفة على وسائل التواصل الاجتماعي أو برامج تليفزيونية تافهة تعرض عمل تقرير عن كريم الشرقاوي بحثا عن مشاهدات لبرامجهم الفاشلة لذا بدأ يظن د. منصور أن ذلك الأربعيني كان دعابة لمجموعة من التافهين ولعلها فرصة أن ينشغل منصور بتلك المكالمات بعيدا عن تفكيره بحالة كريم الشرقاوي والذي لا يزال لا يجد لحالتها تشخيصا واضحا، هل سيظل جسده راقدا هكذا دون حراك؟؟ هل ستستمر حياته متعلقة بذلك المحلول الذي يسري بدمه؟؟ وبالطبع لن تقبله أي مستشفى آخر بحالته هذه، وإن كان الأمر قد تحسن قليلا بعد أن اشترى "الدوكش" تلك المرتبة الكهربائية التي تحمي جسد كريم من تقرحات الفراش بعد أن أقسم أمام منصور أنه اشتراها بمال حلال بعيدا عن تجارة المخدرات والبلطجة.

عاد د. منصور لروتينه اليومي ما بين التنقل من المستشفى العام للخاص والعكس، وأثناء عودته يوما من المستشفى الخاص انتفض قلبه حيث تذكر أنه وسط همومه وضغط عمله وانشغال عقله بكريم

الشرقاوي قد نسي أن هناك شيئا ما يُدعى رسالة الماجستير، ولكن سرعان ما عاد لقلبه الهدوء حيث تذكر أن مشرف الرسالة قد سافر خارج البلاد منذ سبعة أشهر ولا يعلم عنه شيئا، وبالطبع هذه فرصة طيبة لمنصور كي يكمل أقساط حذائه الجديد الذي سيحضر به المناقشة داعيا الله أن يمد في سفر المشرف كي يلحق منصور في البدء بالبحث عن جمعية لشراء البدلة التي سيحضر بها المناقشة، فالعلم لم يعد حتى يُكيّل بالباذنجان، ولكن كما العادة لم يتوقف رنين هاتفه اللعين:

- من معي؟

- هل أنت د. منصور؟

- يقولون هذا، ماذا تريد؟

- هل أنت المسئول عن حالة المريض كمال عبد الرحمن؟

رد منصور متذكرا ذلك الأربعيني:

- قلت لكم قبل هذا اسمه كريم الشرقاوي.

- لكم! عفوا هل اتصل بك أحد من قبلي بخصوص حالة كمال عبد الرحمن؟

- ليس لدي الوقت لهذه الترهات، عفوا لدي عمل اتصل بي فيما بعد.

- بالله عليك أجبني فقد تكون حياة كمال في خطر.

- ماذا؟؟

- لا أستطيع أن أخبرك في الهاتف، أنا في الطريق إليك وحينها ستعرف كل شيء، هذا إن بقينا أحياء.

وأغلق الاتصال.

خاطب منصور نفسه:

- إن بقينا أحياء! ما هذا؟؟ هل هناك ما يتهدد حياتي؟؟ كلا لست لقمة سائغة، أنا طبيب، أتعلمون ما معنى طبيب؟؟

ولكن سرعان ما تذكر حاله فهو مجرد كائن لزج مغطى ببالطو أبيض ليس له قيمة في الحياة، ينظر إليه الناس أنه لا يفعل أي شيء مفيد اللهم إلا تلك التمثيلية على أهل المرضى بوضع سماعته على قلب المريض ليصف له دواء للمعدة أو القولون قد سبق وأن وصفه ابن خالة المريض الذي يعمل في إدارة المعاشات، إذن الأمر ليس معجزا هي مجرد كلمات سيريالية موجهة للصيدلية التي بالطبع ينهب الطبيب منها نسبة على مبيعات ذلك الدواء الذي بالطبع أيضا يأخذ مقابل كتابته من

شركات الأدوية التي تغمره بالهدايا والرحلات حول العالم انطلاقا بجزر الكاريبي مرورا بجزر المالديف وانتهاء بسواحل كاليفورنيا، بالإضافة كي يستطيع الإنفاق على سيارته الفخمة ذات الدفع الرباعي متنقلا بها ما بين مزرعته الخاصة وفيلته ذات الثلاث حدائق.

لم يدم حديث منصور مع نفسه كثيرا فسرعان ما عاد لواقعه المعتاد ما بين متابعة الحالات التي ترد على المستشفى طامعين في دواء مجاني يعينهم على مجابهة الأمراض المزمنة التي تفتك بأجسادهم النحيلة وما بين مراجعة رسالة الماجستير التي يحلم بإنهائها قبل موته، وإن كانت تلك الشهادة تثبت أنك متعلم وليست بالضرورة تفيد بأنك تفهم كما قال آل باتشينو، ووسط انشغاله وجد أحد العمال بالمستشفى يقف مع شاب ثلاثيني ويشيرون نحوه ليأتي ذلك الثلاثيني موجها كلامه لمنصور:

- حضرتك د. منصور؟

رد منصور في ارتياب:

- يقولون هذا.

- هل من الممكن أن أتحدث معك على انفراد؟

- كلا يجب أن تأخذ موعدا من مديرة أعمالي وهي الآن غير موجودة.

- يا لها من دعابة ظريفة، الأمر جد يا دكتور وقد يكلفك رأسك المستندة على كتفيك.

- ماذا؟؟ هل أنت من اتصلت بي منذ ساعتين؟

- نعم، فلنجلس بعيدا عن الأنظار ولكن دعني أطمئن على كمال أولا.

- تقصد كريم؟

- أيا كان من هو، أريد أن أراه.

- اتبعني ولكن لا تحدث جلبة.

انطلق الاثنان نحو الغرفة التي يرقد بها كريم الشرقاوي أو كمال عبد الرحمن كما يدعي ذلك الثلاثيني، وما إن دخل الاثنان للغرفة حتى جثا ذلك الثلاثيني على ركبتيه مقبلا رأس الراقد قائلا:

- قد خذلناك يا صديقي، فقط فلتفق من غيبوبتك وسنفعل ما تريد، فقط أفق يا صديقي، أفق..

ولكن ما لبث ذلك الثلاثيني حيث لم يجد أي تأثير لكلماته على ذلك الراقد الذي بدا متنعما في غيبوبته ولسان حاله: أحب حياتي هذه فلماذا تريدون أن تخرجوني منها لكي أعود لعالمكم القذر؟

أخذ منصور ذلك الثلاثيني وأخرجه من الغرفة متجهين نحو قاعة سليم للاجتماعات، وما إن وصلوا هناك كان الشاي الساخن المطعم بنوع من النباتات بدا أنه نعناع جاهز في استقبالهم، وبادر الثلاثيني د. منصور بالحديث:

- أنا هشام الشناوي موظف في إحدى الشركات وصديق كمال عبد الرحمن المقرب.

- أما زلت مصرا على أنه كمال عبد الرحمن؟

- بالطبع أنا مصرّ فقد عشت مع هذا الإنسان النقي فترة لن أنساها طوال عمري، تعلمت منه الكثير والكثير.

وتوقف عن الحديث مغالبا دموعه بعد أن تذكر ما آل إليه صديقه المقرب.

- لا تقلق سيُشفى بإذن الله لكن متى؟؟ الله أعلم.

- رد

- هل وصلتم لتشخيص حالته؟

- للأسف لا، فالإمكانيات لدينا محدودة فلا مجال لدينا سوى الانتظار والاستمرار على المحاليل الطبية التي تغذي جسده الراقد، وإن كان من الناحية الإكلينيكية لا يوجد سبب واضح للغيبوبة، بل وكل علاماته الحيوية تدل أنه يتمتع بصحة جيدة.

- يجب أن يعيش، فحياته لديّ غالية، غالية جدا بل هي أغلى لدي الآن من حياتي.

- يبدو أنك تحبه، تحبه كثيرا.

- قد أحببت نقاءه، أحببت روحه الطيبة، أحببت تفانيه في عمله، يخدم الجميع سواء أكان يعرفهم أو لا يعرفهم، يتواضع للجميع..

قال منصور مقاطعا -

- ما الذي تعرفه عن كريم عفوا كمال عبد الرحمن؟

- إنها قصة طويلة..

- الوقت ليس مشكلة فرسالة الماجستير لن أناقشها تلك السنة ولا يوجد مرضى الآن، فقط أخبرني بقصته.

مسح هشام الشناوي عينيه محاولا إيقاف انهمار الدموع منهما ليحكي قصة كمال عبد الرحمن، ومع تفاصيل الحكاية يخفق قلب منصور بشدة، فالأمر يبدو خطيرا، خطيرا جدا.

(٥)

دخل الموظف الجديد الذي تم تعيينه بقسم المراجعات الحسابية في نشاط لمبنى الشركة موزعا ابتسامته الهادئة على كل المحيطين دون أن يلقي بالا لنظرات الفضول التي تلاحق خطواته الرشيقة، وما هي إلا دقائق وكان يقف أمام مكتب السيد / عصام رضوان مدير قسم المراجعات الذي لم يعر أي انتباه لوجود الموظف وتحدث إليه وهو يراجع بعض الملفات على شاشة الكمبيوتر.

- كمال عبد الرحمن، يبدو من سيرتك الذاتية أنك على قدر كبير من العلم، فعمرك لم يتجاوز الخمسة والثلاثين عاما ولديك شهادات خبرة جيدة لا بأس بها، ولكن الشهادات ليس بالضرورة معناها أنك تجيد العمل، فأرض العمل تختلف كثيرا عن فضاء الكتب، لن تجد مثالية العلم التي تعلمتها في الكتب هنا، فليس من الضروري أن يكون حاصل اثنين زائد اثنين أربعة، قد يكون خمسة أو قد تقل حسب مصلحة العمل.

- رد

- العلم ثابت يا سيدي ومصلحة العمل في صلاح العلم.

- ستغير رأيك يوما ما ولكن لا وقت لدينا للنقاش قد نتقابل يوما ما على المقهى بعد أن تغير رأيك ونتندر على ما كنتَ فيه.

رد كمال بهدوء:

- للأسف يا سيدي ولكنّي لا أجلس على مقاهٍ.

رفع عصام رضوان عينيه في لا مبالاة نحو كمال عبد الرحمن مكملا حديثه:

- أثق في ذوقك في اختيار المقهى حينها، اذهب للمكتب رقم ٢١ واسأل عن زميلك في المكتب هشام الشناوي هو من سيعرّفك متطلبات عملك.

ثم عاد لمطالعة الأوراق التي أمامه في برود منهيا المقابلة مع كمال عبد الرحمن بكلمات مقتضبة "أغلق الباب خلفك".

ابتسم كمال في هدوء وأغلق الباب خلفه ناظرا حوله حتى وجد ضالته في الغرفة ٢١ ليدق على الباب بصوت خفيض ومرت دقيقة ولم يفتح أحد، وتناهت إليه أصوات نقاش عالية تضحك من خلف الباب فدق على الباب بقوة أكبر كي يسمعه أولئك الضاحكون، وبالفعل سمع وقع أقدام تتحرك ليجد شابا بدت عليه البساطة يفتح الباب لينظر إليه متسائلا عما يريد.

- قال

- أنا كمال عبد الرحمن زميلكم الجديد بالمكتب.

رد الشاب مرحبا:

- هشام الشناوي، مدرس لغة إنجليزية، تفضل هنا مكتبك.

دلف كمال عبد الرحمن للحجرة ٢١ مبتسما، وهاله ذلك المكتب القذر حيث تكاد رائحة السجائر رديئة الصنع أن تخنق رئتيه، ناهيك عن الأوراق الملقاة في جنبات المكتب.

- أنا كمال عبد الرحمن خريج تجارة عين شمس.

رد هشام الشناوي ضاحكا:

- هل أعجبتك؟؟

- أعجبتني بالفعل.

- هل أخبرك بمزحة أفضل منها؟؟

- بالطبع أخبرني.

- أنا بالفعل مدرس لغة إنجليزية، لكن العلم لا يطعم البطون الخاوية، فتركت التعليم والتحقت بالعمل هنا.

- ماذا؟؟

- لا تتعجب يا صديقي فالأهم من العمل "تظبيط" العمل، ولست وحدي هكذا فذلك الجالس بجوار النافذة المغلقة عمرو السعيد - اسما لا فعلا - خريج تربية رياضية وذلك الفاشل المندمج في لعب كاندي كراش مصطفى السويفي خريج آداب قسم تاريخ.

- ولكن هذا ليس صحيحا لمصلحة العمل!

- فليذهب العمل للجحيم فلا يوجد عمل سوى الأوامر التي تأتيك من مكتب رؤسائك لتنفذها دون نقاش أو تفكير، فالتفكير مضر جدا بالراتب، فإذا أخبرك مديرك أن ثلاثة زائد ثلاثة تساوي سبعة فهي بالفعل تساوي سبعة، واللعنة ستصيب أولئك الفاشلين الذين يرونها تساوي ستة، فمصلحة العمل تقتضي ذلك لأن المدير لا يخطئ وحتى وإن أخطأ فالخطأ سيعتبر تفكيرا خارج الصندوق، أما لو فكر الموظف فهو دائما مخطئ بل وخسائر الشركة في العامين الأخيرين ستكون بسبب تفكيره الخاطئ، لذا يكفيني أن أقف أمام ماكينة البنك لأجد راتبي لم ينقص الكثير رغم مكائد أولئك الأشرار الرابضين في مكتب الموارد البشرية.

- يبدو أنك تكرههم بعض الشيء.

- كلا بل هم يكرهون أنفسهم، يقفون لك بالمرصاد إن تأخرت دقيقة فترى في أعينهم نظرة الانتصار العظيم لتتوجه أيديهم مباشرة إلى الخصم من راتبك الضئيل مهنئين أنفسهم بذلك الانتصار العظيم، في الوقت الذي تُصمُّ آذانهم وتعمى بصائرهم عن التأخير في العمل إلى ما بعد أوقات العمل الرسمية، دون أن يكلفوا أنفسهم بابتسامة شكر، ناهيك عن تلك الصاعقة التي تضرب قلوبهم عندما تتقدم مثلك مثل أي بشري يحيا على ظهر البسيطة كي تحصل على إجازة لالتقاط ما تبقى من روحك المبعثرة ولسان حالهم يقول: ما الذي دفع هذا اللعين لكي يتقدم بطلب كهذا! يبدو أنه قد نسي نفسه، فلتلقوا بطلبه للكلاب الجائعة ولتخصموا من راتبه يومين بحجة عدم تنسيق شعره رغم أنه يحلق رأسه "عالزيرو" ليكون عبرة لمن يفكر بل لمن تحدثه نفسه أن يفكر في طلب مثل هذه الطلبات، فهذا اللعين لم تكفه إجازة عيد النصر وإجازة عيد التحرير ونصف يوم الجمعة بل ويتجرأ ويطلب يوما إضافيا ليكيل لنا الاتهامات بكوننا غلاظ القلوب!

- ولكن ما ذنبهم؟؟ فجهاز البصمة هو الذي يحدد موعد حضورك وليس مدام شوقية موظفة الدفتر.

- كلا إنهم يستطيعون التأثير على الجهاز فهم أبالسة لهم طرقهم السفلية في الخصم من راتبك.

- سنحاول معا ألا يحدث ذلك.

- كيف؟ هل سنصنع بصمات مزيفة أم سنطور فيروسا للقرصنة على البصمة؟

- لا هذا ولا ذاك بل سنفعل ما يطلبون.

- وما الفائدة؟ نحن لا نفعل شيئا في هذا المكتب سوى اللعب على الهاتف المحمول.

- فقط وافقني وسترى.

نظر هشام عبد الرحمن لباقي رفاقه في الغرفة والذي لم يبد أي منهم اهتماما يُذكر فقد دارا في عجلة الروتين اليومي السهر حتى وقت متأخر على المقهى لتصفح فيسبوك ومتابعة الدوريات الأوروبية انتهاء بالعودة المترنحة للمنزل لاقتناص سويعات من النوم تعينهما على اللحاق بتلك البصمة اللعينة التي لا تتوقف أبدا، والتي كالعادة لا يصلون إليها بعد انتهاء وقت الحضور، ويبدأ حساب الخصم من الراتب للدرجة التي أصبحت فيها لا تعرف كم هو راتبك الفعلي.

- لن نخسر شيئا، ماذا تريدنا أن نفعل؟

- باختصار سنعيد لأنفسنا صورة الإنسان السويّ، لا أقول إننا سنغير العالم اللعين كلا سنصلح أنفسنا وإن أراد العالم الإصلاح فأهلا به.

- رد

- وهل تجدنا أناسا قابلين للتغيير؟ نحن مُدجّنون لا مجال لنا سوى السير في دوّامة الحياة ولا حق لنا برفع الغمامة التي تغطي عقولنا.

- كل إنسان قابل للتغيير، ولعلك لاحظت أني أقول إنسان.

- أنا معك، كيف نبدأ؟

قال كمال عبد الرحمن موجها حديثه لعمرو و -

- وأنتم هل ستلحقون بنا أم لا؟

أشار الاثنان بلا مبالاة أنهما سيلحقان بهما في سعيهم الفاشل للعودة للإنسان السويّ.

- إذن أعطوني أرقام هواتفكم ولنبدأ من اليوم التغيير.

مرت الأيام متسارعة وبدأ المكتب يحدث به الكثير من التغيير، فرائحة المعطر بدأت تنتشر وأصبحت الأوراق مرتبة في أدراجها، وبدأ كل من في الشركة يلاحظ التغيير الذي حدث للمكتب، وبالطبع إدارة الموارد البشرية كانت أول من علم بالتغيير، حيث أعلن جهاز البصمة انتظام الجميع بالحضور، حيث اتفق كمال مع باقي زملائه أن يوقظهم مبكرا ويمر عليهم كي يذهبوا سويا للعمل، حيث لاقى بعض الصعوبات في أول الأمر ولكن مع انتظام الساعة البيولوجية لهم بدا الأمر أكثر سهولة.

ابتسم كمال عبد الرحمن وهو يرى سرعة استجابة رفقائه في المكتب بصورة لم يتوقعها رغم تفاؤله الشديد، مما يعتبر تأكيدا لنظريته في وجود بذرة الإنسان النقية التي مهما تعاظمت الخطوب والمغريات على النفس البشرية ستظل صالحة للنمو حالما وجدت الماء النقي الذي يسقيها، مما شجعه على الانتقال للمرحلة الثانية من التغيير، حيث قد وضع كمال يده على المفتاح الذي سيجعل التغيير أكثر سهولة، حيث فطن أن حالة اللامبالاة الموجودة لدى رفقائه ما هي إلا رد فعل طبيعي لإحساسهم بأنهم لا قيمة لهم في الحياة فقنعوا بتلك الوظيفة التي توفر لهم القليل من الآدمية يائسين من وجود مجال آخر للحياة خارج نطاق العمل الرتيب وبالتالي يعتبرون التطوير من ذاتهم من الخيال العلمي.

- إليكم جدول حصص الأسبوع يا شباب..

نطقها كمال عبد الرحمن في حماس موجها حديثه لرفقاء المكتب ليرد عليه مصطفى السويفي بابتسامة ساخرة:

- جدول الحصص!! عذرا لقد نسيت كراسة الواجب على المقهى، هل سنعود للمدرسة؟

رد كمال بحماس:

- نعم سنعود للمدرسة.

- نادى

- يعجبني الصنف الذي بدأت تتعاطاه، مرحبا بك في عالم السعادة.

ابتسم كمال لدعابة عمرو السعيد ولكنه رد عليه بجدية:

- أعدك يا عمرو أنك ستتعاطى معي ذلك الصنف الذي سيعيدك إنسانا لذا فقد وضعت اسمك في أول جدول الحصص.

- قال

- سأخرج لشراء سجائر حتى تنتهوا من ألغازكم.

- رد

- انتظر قليلا كي تسمع ما أريد.

- إذن أسرع فعقلي الآن يسبني بألفاظ يعاقب عليها القانون فقد تأخرت عليه في إفطاره فعقلي لا يعمل قبل سيجارة الصباح مع فنجان القهوة من يد عم مبروك.

- ومن عم مبروك؟

- عم مبروك هو أفضل اختراع بعد الكهرباء فلديه تعويذة فرعونية تقريبا مخرجة لنا مذاقا عجيبا يبدو لك ظاهريا أنه قهوة وهو في الحقيقة مشروب سحري يعيد لكومة القش الرابضة في عقلي رونقها وشبابها.

- شوقتني يا هذا، فلننه حوارنا ثم لكم عندي قهوتكم من يد الساحر مبروك هذا فالوقت قصير والأعمال كثيرة.

ضحك عمرو السعيد بسخرية:

- الوقت قصير! نحن لا نملك وفرة في أي شيء سوى الوقت.

- رد

- لن نجده بعد اليوم، دعوني أصدقكم القول فبعدما دخلت لمكتبكم توجست منكم خيفة ولكني عندي نظرية ثابتة لا تتغير أنه بداخل كل

إنسان بذرة خير ما إن تُروى حتى تُزهر بستانا جميلا لذا بدأت أختبر وجود تلك البذرة لديكم.

رد هشام بضحكة عالية:

- وبالطبع وجدت البذرة قد أكلتها السجائر.

رد كمال بحماس:

- كلا وجدتها بذرة قوية لكن مدفونة فقط تحتاج للشمس كي تنبت وتزهر، وسنبدأ كلنا في ري البذور سنتكئ على بعضنا البعض وليكن كل منا عكازا لصديقه وخير البر عاجله، سنبدأ جدول الحصص من الآن كل في تخصصه، عمرو أنت خريج تربية رياضية فلتجهز لنا برنامجا تدريبيا كل يوم ولو لربع ساعة فعيب علينا أن نكون شبابا وتسبقنا كروشنا هكذا، هشام أنت خريج آداب قسم لغة إنجليزية، اللغة الأولى في العالم، ستعلمنا اللغة الصحيحة ولك مطلق الأمر حتى لو أردتنا أن نتعلم كتابة الحروف من جديد، وبالنسبة لي أنا درست علوم المحاسبة وأنهيت دراساتي العليا بها بل وحضرت العديد من الكورسات سأنقلها لكم جميعا.

هنا قاطعه مصطفى السويفي قائلا:

- إذن ستجدني كاسدا فماذا سيبيع لكم دارس التاريخ؟

رد كمال بحماس متزايد:

- بل أنت الأساس فما من مستقبل إلا وله حاضر والحاضر لا يولد إلا من التاريخ.

- قال

- ولكن التاريخ لا يكتبه إلا المنتصرون.

- رد

- أتفق معك ولكن ليس كل المنتصرين يعرفون الكتابة، فلتبحث لنا عن التاريخ الحقيقي الذي بُنيت به الأمم وكيف نجحوا وكيف أيضا سقطوا.

- لقد غيرت وجهة نظري فيك..

قالها هشام الشناوي بابتسامة صادقة موجها حديثه لكمال عبد الرحمن وهم يغادرون الشركة بعد انتهاء يوم العمل.

- رد

- وهل يا ترى تغيرت للأسوأ أم للأفضل؟

- حقيقة لا أعرف..

ثم أردف بابتسامة:

- حقيقة لم أعتد أن أكون محترما فالأمر جديد عليّ وهذا بسببك بالطبع.

- أنت في الأصل محترم لكن المجتمع هو الذي طبّعك بغير هذا.

- ولكنك ستغير رأيك بالتأكيد عندما تعلم حقيقتي.

- من كان منا بلا خطيئة فليرمنا بحجر.

- لا أريد إزعاجك يا صديقي أو بمعنى أدق لا أريد تغيير صورتي الذهنية لديك.

- لن يحدث هذا ولا ذاك.

تغيرت نبرة هشام لتكون أكثر جدية:

- هل أصدقك القول؟

رد كمال باهتمام:

- بالطبع هذا ما أريده.

- قد فاض بي الكيل وأريد أن أتحدث معك.

- فلنذهب لمنزلي فنتحدث كما تشاء.

- كلا لا أريد المنزل فصدري يكاد يختنق وأريد تنفس الهواء الطلق.

- كما تريد فلنذهب ونجلس على الكورنيش.

- وما هي إلا دقائق وكان الاثنان يجلسان أمام الكورنيش، والغريب أن هشام ظل صامتا لفترة ناظرا للنيل كأنما يضع قلبه في الماء كي يطهره مما أصابه، ولم يشأ كمال أن يقطع لحظات الصفاء التي يعيشها هشام. حتى قال

- أتعلم يا كمال؟

- كلي آذان صاغية.

- أنا أرغب بشدة أن أكون ذلك الشخص الذي تريده.

- وما الذي يمنعك؟

- حقيقتي الفاسدة، ، فأنا شاب لعوب، ما إن أنهي عملي في الشركة حتى أعود لحاسوبي مراسلا الفتيات واللعب على أوتار مشاعرهنّ وما إن تتعلق بي الفتاة ونخرج معا فأتركها وأذهب لغيرها.

- ولماذا لا ترتبط بإحداهنّ؟

- كيف لبرص مثلي أن يرتبط؟ فراتبي لا يكفيني سجائر ناهيك عن الشقة وباقي مصاريف الزواج.

- الإمداد على قدر الاستعداد فالخير سيحمي أصحابه، وما أكثر أهل الخير.

- عذرا لا أفهم!

- إن بدأت بالحلال سترزق من الباب الواسع، كما أن هناك الكثير من الأسر يشترون رجلا كما يقولون فيبدأ البيت بالقليل وبالحب والمودة ستبنى القصور حتى لو كانت في خندق صغير.

- لا يوجد شيء اسمه الحب، الحب معركة فاشلة يصر فيها الطرفان على الخسارة.

- تقول هذا لأنك لم تعرف الحب الحلال، كل ما رأيت هو نزوات شهوانية تلهو بها مع فتيات بعضهنّ يستمتعن باللهو أيضا وبعضهم بالفعل يحبك.

- أرأيت أني لا أصلح لأن أكون الشخص الذي تريده؟

- على العكس لقد زادت قناعتي بأنك تستطيع أن تصبح كما تريد.

- كيف؟

- بأن تبحث عن حب حقيقي، أخبرني أولا هل أحببت إحداهنّ من قبل؟

- ممن لهوت معهنّ؟ بالطبع لا..

ثم ابتسم في شغف وأرجع جسده للوراء ناظرا للسماء، قائلا:

- ولكن..

- ولكن ماذا أيها العاشق؟

تلعثم قائلا:

- لا، لا شيء، تذكرت أمرا ما.

- قلنا سنتحدث بصراحة.

- مريم..

- أي مريم؟؟

- ابنة الأستاذ مسعود زميلنا في مكتب المشتريات، رأيتها يوما حين كان الأستاذ مسعود مريضا بالمستشفى.

- وكيف تراها؟

- أراها مختلفة عن كل من رأيت، ليست من أولئك الملتاعات بالجري وراء الموضة أو التصوير ببوز البطة كما يقولون، هادئة الطباع، محتشمة.

- وكيف عرفت كل ذلك؟

- في هذه الفترة كنت متواصلا معها لتوصيل هدايا الموظفين للأستاذ مسعود.

- وهل تبادلك هي نفس الشعور؟

- أشعر بذلك ولكنها لم تفصح.

- وهل تحبها؟

- قلت لك إن الحب معركة خاسرة.

- يكفي أن ترى وجهك الآن في المرآة لتعرف أنك غارق في حبها.

- وبماذا سيفيد الحب؟؟ فإذا دخل الفقر من الباب قفز الحب من النافذة.

- هل سألتها؟

- لا ولكن لا مجال كي أتزوجها لنجاور الفئران في الجحور.

- قد ترضى بجوار الفئران طالما تحبك.

- إني أحبها بالفعل وأخاف أن أفقدها، فمرارة الفقد أصعب من مرارة البعد، يكفيني أن أظل أحلم بها.

- وهل ستظل هكذا؟ تلعب بقلوب الفتيات واللاتي كل ذنبهنّ أنهنّ أحببنك؟!

- لا أعرف..

- يجب أن تعرف إن أردت التغيير، وتذكر أنه كما تدين تدان.

بدأت العجلة تدور فأصبح لكل منهم رياضة صباحية يومية تحت إشراف الكابتن "عمرو السعيد" كما أطلقوا عليه، فاختفت الدهون من أجسادهم وصاروا أكثر رشاقة وبدأ يظهر التنظيم في عملهم بعد أن أثمرت دروس كمال عبد الرحمن الكثير من الإيجابيات، بل وبدأ الجميع يتحاورون باللغة الإنجليزية بطلاقة بعد أن اجتهد "مستر" هشام الشناوي في تدريس أصول اللغة الإنجليزية السليمة.

ألقى كمال عبد الرحمن جسده على الأريكة بعد عودته لمنزله بعد يوم عمل طويل مع أصدقائه في المكتب ممنيا نفسه بلحظات من الراحة كي يكمل بعدها ترتيب شقته التي أهملها كثيرا، ولكن سبق السيف العزل،

فقد استسلم جسده لصرخات العقل المنهك الباحث عن لحظات النوم لإيجاد الطاقة التي تعينه على استكمال الدوران في دوامة الحياة، ولكن هيهات، فلم يهنأ العقل بالنوم الحالم ليجد ذلك الحلم المزعج -أو سمّه كابوسا إن شئت- حيث بدا كمال عبد الرحمن يمشي وحيدا في طريق مظلم وقد اشتدت الرياح حتى كادت تقذف به للحائط وأثناء سيره وجد رفقاءه يتمسك كل منهم بشجرة متهالكة تكاد الرياح أن تقتلعها من جذورها الضعيفة وصرخ فيهم بأعلى صوته أن اثبتوا ولكن هيهات، فصوت الرياح قد غطّى على صوته المبحوح لتختفي صورتهم من أمامه فجأة وتعاود صورة منزله غير مرتب للظهور أمامه بعد أن استيقظ فزعا من ذلك الحلم الذي أصابه بقلق كبير.

هل ستصمد بذرة الخير التي غُرست في قلوب رفقائه أمام متغيرات المجتمع، أم ستنتزعها رياح الشر والشهوات؟

لم يجد إجابة في الوقت الذي ذهب فيه النوم إلى غير رجعة، فيبدو أنه سيكون ليلا طويلا، طويلا جدا.

نظر كمال للساعة فوجدها لازالت الثانية صباحا، الهدوء مخيف، وابتسم ساخرا عندما تذكر هيام الشعراء بالليل وكيف أنه وقت تذكر الحبيب والشوق لرؤياه، ولكنّه رأى الليل مختلفا، رآه كئيبا مرعبا، وفجأة

ارتجف وقفز من مقعده حينما سمع صوتا معدنيا تبين بعد ثواني عندما استعاد عقله التفكير أنه صوت هاتفه، فنظر للهاتف بتعجب، فمن الذي سيتصل عليه في هذا الوقت المتأخر؟ أمسك بهاتفه ليجد رقم مصطفى السويفي، وما إن فتح الخط إذا بصوت مصطفى مبحوحا:

- عذرا يا صديقي أتصل بك في وقت متأخر.

- لست نائما فأنا أجلس في الشرفة لا أفعل شيئا.

- أريد أن أراك.

- أين ومتى؟؟

- سأمر عليك في البيت.

- منتظرك وسأصنع لك كوبا من الشاي بالنعناع لا يستطيع عم مبروك شخصيا صنعه.

ماهي إلا دقيقتان ووجد كمال صديقه السويفي يقف أمامه الذي نظر إليه بتعجب فكيف وصل إليه سريعا.

- لقد كنت جالسا أمام بيتك طوال الليل وترددت كثيرا في الاتصال بك.

- أقلقتني؟؟ ما بك يا صديقي؟؟ ولماذا ترددت في المجيء؟؟؟

- قد ضاقت بي السبل وغُلّقت الأبواب أمامي.

- حديثك زادني قلقا، ها هو الشاي بالنعناع الذي يساوي ألفا من قهوتكم فلتجلس وبُح بما أصابك من هم ولا تنسَ فأنا العكاز.

- ولكنّي لست أهلا لذلك فأنا لست بالخيّر الذي تراه.

- مهما كان خطؤك فكلنا كذلك، الخطأ هو الاستمرار في الخطأ و الاعتراف به أولى خطوات إصلاحه.

- أنت إنسان نقي لذا لا داعي لكي تدنس روحك الطاهرة بشروري.

- لماذا تظن أنك سيء لهذا الحد؟

- لأني بالفعل كذلك، لقد عشت أياما لم أعهدها منذ أن عرفتك، أحسست أني إنسان بالفعل، لكني أضعف من أصمد فحياتي بعد تركككم كئيبة، أعود للمخدرات التي انزلقت فيها والتي ستفتك بي قريبا، لم أعد أستطيع الثبات أمام المجتمع.

- بل ستسطيع، عفوا بل سنستطيع سويا.

- نحن!! نحن من؟؟ عفوا لا أريد أن يعرف أحد سواك.

- لا عليك، لا عليك سيبقى ذلك سرا ولكن يبقى لدي سؤال مهم أريد الإجابة بصراحة..

- وما هو؟

- هل من داخلك تريد التغيير حقا ولا تعرف الطريق؟ أم تتباكى لكي تريح ما تبقى من ضميرك كي لا يلومك على الإكمال في شهواتك؟

- سأصدقك القول، إني بالفعل لا أعرف، فحياة المخدرات جميلة لا مشاكل فيها ولا ضغوط، ولكنّها أولا وآخرا وهم جميل يجرّك لأعماقه شيئا فشيئا فقلبك لا يطيق بُعاده وعقلك يدرك أنه وهم، وكلما زاد الانغماس فيه سيجعل الخروج منه مستحيلا.

- ومن سيربح؟؟ عقلك أم قلبك؟؟

- هذا ما أفكر به طوال الليل لذا جئت للعكاز.

- العكاز سيأتي دوره بعد أن تحدد من الرابح.

- لا بأس سنجرب العقل، كيف نبدأ؟

- أولا يجب أن تقتنع أنك أقوى منها وأنها وهم ولأنها وهم ستستطيع التوقف عنها.

- أنا لست مدمنا بشراهة ولكنّها تجري في دمي.

- سأتصل بصديق لي طبيب بأحد مراكز الإدمان سيساعدنا في ذلك الأمر.

- سأكون ممتنا لك.

- العكاز لا يحتاج للامتنان بل يحتاج فقط أن تكون إنسانا سويا، وها هي نسخة من مفتاح شقتي فإذا أردت المجيء في أي وقت فلا تتردد.

ابتسم مصطفى وأصر على المغادرة رغم أن كمال عرض عليه المبيت فهو وحيد في الشقة وليس معه أحد، وما إن أغلق كمال الباب خلف مصطفى حتى دق قلبه بعنف وتذكر ذلك الحلم المزعج الذي أيقظه من منامه فيبدو أنه لن يكون حلما بل كابوسا، كابوسا لا قبل له به، فهل ستنجح تجربته؟؟ أم ستتقاذفها الرياح كما حدث في الحلم.

وأكمل ليله ناظرا للسماء وقد تكالبت الأفكار على عقله إلى أن أخرجه أذان الفجر من دوامة التفكير مؤذنا ببدء يوم جديد لا يبدو كسابقيه.

مرت الأيام وبدأ كمال يلاحظ التغيير الذي يحدث لمصطفى الذي بدا أكثر اكتئابا وانطوائية وتخلى عن روحه المرحة بل وعاد يدخن بشراهة كأنه يعاقب نفسه على محاولة التخلص من المخدرات فقد قال له الطبيب

المعالج الذي تواصل معه كمال إنه -أي مصطفى- سيشعر بكثير من التغيرات الجسدية والنفسية نتيجة انسحاب المخدر من جسده ولكن كلما زاد صبره وابتعاده عن المخدر سيستعيد الجسد حيويته بسرعة، أما إن انتكس فالأمور ستزداد صعوبة، في الوقت الذي لاحظ فيه عمرو السعيد وهشام الشناوي تلك التغيرات وحاولا التلميح بالسؤال ولكن مصطفى أجابهم باقتضاب بكونها بعض المشاكل مع أهله، وبالطبع لم تنطلِ عليهما تلك الحجة ولكنهما آثرا الصمت بقلق عارضين عليه خدماتهم إن احتاج لشيء.

- لماذا لا تتقدم بالعمل في أي نادي يا عمرو؟؟

قالها كمال عبد الرحمن أثناء تدريبهم.

رد عمرو السعيد ساخرا:

- وأي نادي سيقبل بفاشل مثلي؟

- ومن قال إنك فاشل؟؟ أما ترى ترهلات أجسامنا التي ذهبت بغير رجعة؟؟ أما ترانا قد استغنينا عن المصعد وصرنا نصعد درجات السلم في نشاط ودون تعب؟؟ لقد فعلت المستحيل يا رجل وفي وقت قياسي.

- لست فاشلا كمدرب رياضي ولكني فاشل لأني بدون ظهر.

رد كمال ساخرا:

- وهل قمت باستبدال عمودك الفقري في الحرفيين؟

ابتسم عمرو ثم أتبع قائلا:

- أتعلم يا كمال، إني كنت من الأوائل على دفعتي، ولولا مرضي في آخر أيام الامتحانات لتم تعييني في الكلية..

- يبدو هذا واضحا فأنت محترف بحق، ولكن لمَ لا تحاول الالتحاق بالتدريب في أي نادي؟

- حاولت من قبل ولكن لأني بدون واسطة فكان الرد كالعادة اترك سيرتك الذاتية وسنتصل بك لاحقا.

- فلنحاول ثانية، هل لديك ما تفعله يوم الأجازة؟

- نعم لدي دورة بلايستيشن ولدي مراحل جديدة في كاندي كراش أريد أن ألعبها.

- هذا جيد لقد رأيتُ إعلانا عن نادي يطلب مدربين فلنذهب كي تقدم ملفك.

قال عمرو متهكما:

- وهل هذا سيفيد؟ أم ستلحق أوراق التقديم بسابقاتها؟

- عليك بذر الحب لا قطف الجنا.

- فلنحاول ولن نخسر شيئا، ولكن لماذا ستأتي معي في يوم راحتك؟ سأذهب وحدي.

ابتسم كمال في حنان وقال:

- لن أتركك بالطبع كما إني لا أجيد البلايستيشن ولا أطيق الكاندري كراش.

جاء اليوم الموعود للمقابلة في النادي ووقف كمال يربت على كتف عمرو السعيد مشجعا إياه وهو يوصيه بالهدوء والثقة بالنفس، ومرت نصف الساعة حتى جاء دور عمرو السعيد في المقابلة فنظر لكمال الذي صفق له بحماس قائلا:

- اذهب يا بطل لتحصل على وظيفتك.

مرت ساعة كاملة حتى خرج عمرو السعيد مبتسما في سخرية.

- هل حصلت على الوظيفة؟

رد عمرو ساخرا:

- بالطبع لا.

- ماذا حدث؟

- قدمت سيرتي الذاتية في المقابلة وأعجبت بها لجنة المقابلة خاصة بعد أن سألوني بعض الأسئلة وانبهروا بأسلوبي وأخبروني بالانتظار قليلا كي يتم التعاقد معي ولكن بعد دقائق خرج أحدهم ليقول لي تلك الجملة المقيتة اترك هاتفك وسنتصل بك، وعندما سألته عن السبب ابتسم في سخرية قائلا إن الفائز بالوظيفة جاء ومعه ظهره أما أنت فلا ظهر لديك.

- لا تيأس سنجد البديل.

- ليس يأسا ولكن واقعية، يجب أن أبحث عن ظهر والظهر سيجد لي البديل، أمثالنا لا مكان لهم خارج الجحور قد طويت تلك الصفحة تماما.

لم يجد كمال ما يقوله فهذا المجتمع يحارب تجربته بكل قسوة، لا أحد يبحث عن الصلاح الكل يسعى وراء مصلحته، ينظرون تحت أرجلهم ومن يفكر في النظر للمستقبل يداس بالأقدام بعد أن يُلعن ويتهم بالجنون.

كان كمال يتواصل مع مصطفى يوميا أكثر من مرة مشجعا إياه على الصمود فتجربته على المحك إما أن تحقق نجاحا محققا أو فشلا ذريعا،

وبالفعل بدأت الأمور تتحسن قليلا يوما بعد يوم، وبدأ يستعيد مصطفى نشاطه نسبيا وبدأ يعود لطبيعته في الانتظام على الحضور في موعده، ومع كل لحظة تقدم يرقص قلب كمال فرحا فما كان ما رآه في الكابوس إلا مجرد خوف مفرط من عقله الباطن، ولكن ها هي تجربته تنمو وتزدهر فبذرة الخير صمدت أمام الشهوات والمغريات بل وامتدت جذورها لأعماق النفس لتزداد صلابة أمام عواصف المجتمع.

- أما قلت لك يا كمال إن مرارة الفقد أكبر من مرارة البعد..

قالها هشام الشناوي في صوت حزين.

- ماذا حدث يا هشام؟ ولماذا لم تأت للعمل اليوم؟

- لم أستطع الحضور فقدماي لا تحملاني.

- هل أنت مريض؟

- كلا ولكن أشعر بمرارة الفقد.

- الفقد!! فلتسترح سآتي لك حالا.

- لا تتعب نفسك سأكون بخير.

- أي تعب يا صديقي؟ أنا العكاز.. استرح وسأكون عندك بعد قليل.

- في انتظارك.

أغلق كمال عبد الرحمن الهاتف وقلبه يدق في عنف عما أصاب هشام الشناوي، فلأذهب له سريعا ونرى ماذا حدث.

مرت نصف الساعة حتى كان كمال عبد الرحمن يقف أمام باب منزل هشام الشناوي الذي فتح الباب بصعوبة وفوجئ كمال بالحالة التي بدا عليها هشام الشناوي، فقد بدا وأنه زاد عمره عشرين عاما على الأقل، حيث أشار لكمال بالدخول وأخذ يستند على المقاعد كي يصل لغرفته، وما إن دخل كمال غرفة هشام حتى وجد الغرفة غير مرتبة وسط كومة من السجائر وفناجين القهوة مما يفيد أن هشام لم ينم البارحة.

- ماذا حدث يا صديقي؟

- مرارة الفقد تقتلني، لماذا أيقظت حبي لمريم يا كمال؟

- لم أوقظه يا هشام هو لم ينم أصلا، أنت مغرم بها وكل ما تفعله من لعب بقلوب الفتيات ما هو إلا محاولة يائسة لنسيانها.

- وها أنا قد فقدتها تماما.

- أخبرني ماذا حدث.

ارتجفت يد هشام وهي تمتد لالتقاط سسيجارة مشتعلة ليردف قائلا:

- أردت قطع الشك باليقين وتحدثت مباشرة للأستاذ مسعود الذي تردد قليلا ثم ما لبث أن وافق مبدئيا بعد أن أبدى إعجابه بالتغير الواضح في شخصيتي بعد أن أصبحت شخصا سويا، وأنه بالطبع لن يكون قلقا على ابنته بعد الزواج، ولكن يبقى رأي مريم وهو الأساس، واتفقت معه أن أجلس مع مريم في الحديقة القريبة من منزلهم في وجود أخيها..

توقف هشام عن الحديث قليلا ليمسح دموعه التي سالت ساخنة على وجنتيه ليكمل قائلا:

- ذهبت في الموعد الذي اتفقنا عليه لأجد مريم وأخاها في انتظاري فسلمت عليهم وجلسنا لأتعرف على مصطفى أخيها الشاب الذي تحجج بانشغاله بالحديث في الهاتف ليتركني مع مريم التي بادرتني بالحديث في حزم غير متوقع:

- لقد حدثني والدي عن طلبك لخطبتي.

- بالفعل فأنا معجب بك منذ رأيتك.

- أشكرك، لقد حدثني والدي عن التغير الواضح في شخصيتك فأصبحت إنسانا سويا.

- لعله يبالغ فأنتم أهل الكرم.

- أشكرك، ولكني أريد أن أسألك، لمَ اخترتني من وسط كل من تعرفهم؟

- لأني أعجبت بأخلاقك، أعجبت بقوتك في التعامل مع مرض والدك، أحسست أنك ستكونين خير السند لي.

- إعجاب أم حب؟

- الاثنين.

- وهل سيكفي؟

- لا أفهم سؤالك.

- أتريد الصراحة؟؟

- بالطبع.

- لا أخفي إعجابي بشخصيتك الجديدة التي أجمع عليها الجميع دون استثناء، ولكن الحب لا يبني البيوت وحده.

- سنبنيه معا.

- أنـا لا أبنـي فـي الأوهـام قصـورا يـا أسـتاذ هشـام، لسـت ممـن تقـرأ الروايات الرومانسية ولا أريد أن أعيش في أوهامها، فقد رأيت الوجه الحقيقي للحياة أثناء مرض والدي، فلولا أنه باع أرضه التي كان يتكئ عليها لما وجد ثمن العلاج، أين تسكن يا أستاذ هشام؟

- في شقة أخي المسافر لحين العثور على شقة.

- وماذا ستفعل إن تزوجنا فيها وعاد أخوك من السفر؟؟ هل سنبني كوخا في الشارع كي نسكن فيه؟

- هل أفهم من حديثك الرفض؟

تخلت مريم عن حزمها وقالت:

- قلت لك إنـي أعجبت بشخصيتك بل وأحسست أنـي سأكون معك في أمان، وهذا ما تتمناه أي فتاة، أن تجد القلب الرقيق الذي يحتويها ليكون لها درعا أمام نوائب الحياة، ولكن هذه رفاهية لا نمتلكها في مجتمعنا، فعمري الآن ليس به متسع كي أصبر على الارتباط خمسة أو سبعة سنوات سيصبح حينها إنجاب الأطفال من المعجزات، لا مجال للحب في عالمنا يا أستاذ هشام، أتعرف أن والدي الحبيب هو الذي طلب مني مقابلتك كي أتراجع عن خطبتي المنتظرة لابن خالتي الذي يعمل

بالخارج؟ هو يحبك ويطمئن لك كثيرا ويريدني أن أترك ابن خالتي كي أرتبط بك بعد أن سألني إن كنت أميل لك.

- وماذا كان ردك؟

- أخبرته أني بالفعل أميل إليه ويجب أن أقابله كي لا يظل متعلقا بي.

- ماذا؟

- لا مجال بالتفكير بالعواطف، فرفضي لابن خالتي هو نهاية حلمي كي أكون أما.

- والحب؟

- معركة خاسرة ليس لدي رفاهية الوقت لخوضها..

رد هشام في حزن شديد وهو يغالب دموعه:

- هل هذا ردك النهائي؟

- صدقا ستجد من هي أفضل مني، فقلبك النقي تتمناه كل الفتيات.

- ولكنني لا أريد سواكِ..

- فكر بواقعية كي تستطيع أن تكمل حياتك.

- ولكنني..

قاطعته مريم وهي تحاول أن تبدو متماسكة:

- لا يوجد لكن، لن أجعلك تبني قصور الوهم بعد اليوم، أتمنى لك حياة سوية.

هنا لم يستطع هشم كبح دموعه ليحتضنه كريم بشدة مهدئا من روعه في الوقت الذي شعر فيه كمال بقلق شديد وجال بصدره سؤال يخاف من إجابته، هل سيصمد هشام أمام ضياع حبه الوحيد أم سينتكس؟

- أين هشام الشناوي؟

نطقها عصام رضوان مدير مكتب المراجعة بعصبية شديدة وهو يلقي ببعض الأوراق جانبا ليتحرك ساعي المكتب مسرعا نحو الغرفة ٢١ لينادي على هشام الشناوي الذي سرعان ما عدّل من هندامه متوجها بتوجس نحو غرفة المدير.

قال عصام رضوان ملقيا أحد الملفات مكتوب عليه مشروع مصنع السماد أمام هشام:

- ما هذا أيها الموظف الهمام؟؟

- ما الذي حدث؟ هذا الملف راجعته بنفسي وتأكدت من صحة حساباته.

- أي مراجعة؟؟ قد أمرتك أن تنفذ المراجعة بالطريقة التي أمرتك بها.

- ولكنها كانت خاطئة يا سيدي ولم تتقبلها المعادلات الحسابية.

صمت عصام رضوان لبرهة ثم أكمل:

- ماذا؟؟ خاطئة؟؟ ومعادلات حسابية؟؟ هل هذا الكلام موجه لي؟؟

- لا أحد معصوم من الخطأ.

- إذن اعتبر اسمي لا أحد، من أنت؟؟ أنت مجرد دمية تافهة تتقاضى ما يُلقى إليك من راتب كي تفعل ما آمرك به، كلمتي هي المعادلة الحسابية، لا ترفع رأسك كثيرا فلن تربح سوى زيادة خشونة فقراتك العنقية، فافعل المطلوب إن كنت تريد أن يستمر الراتب الذي يُلقى إليك.

- ولكن ضميري يأبى ذلك يا سيدي.

- هذا جيد، فلتجعله يعوضك عن خصم عشرة أيام من راتبك.

- لماذا الخصم؟

- بل خصم اثني عشرة يوما.

هنا صمت هشام الشناوي خوفا من زيادة الخصم ليكمل عصام رضوان حديثه بصرامة:

- أمامك نصف ساعة لتعديل الملف وإلا فأنت تعرف ماذا سيحدث، وأغلق الباب خلفك فأمامي عمل كثير.

دخل هشام الشناوي للغرفة ٢١ وقد تغيرت ملامحه ملقيا الملف بغضب على مكتبه وبالطبع لاحظ رفقاؤه في المكتب تغير ملامحه.

قال مصطفى مبتسما:

- ماذا بك يا مستر؟؟ هل خسر فريقك المفضل كالمعتاد؟

- بل سنخسر مجهودنا وضميرنا.

قال عمرو السعيد وقد ألقى هاتفه جانبا ليعتدل في جلسته في استنكار:

- كيف ذلك؟

- المدير لا يريد مراجعة هذا الملف كما فعلنا، بل بطريقته الخاصة، أين كمال؟

أجاب عمرو:

- ذهب لشراء شيء يأكله.

- يبدو أن الأمر أكبر من سلطة المدير، فكم من ملفات راجعناها كما علمنا كمال ولم يعلق المدير عليها، بل وأثنى على كثير منها، فلماذا هذا الملف بالذات؟

أجاب عمرو:

- ببساطة لأن عقد بيع الأرض الموجودة بالملف بمبلغ لم تعهده الشركة من قبل فيبدو أن الأمر محتاج لمراجعة أدق.

- ولكننا راجعنا الملف أكثر من مرة ولا توجد أخطاء، إلا لو افترضنا أن أجهزة الكمبيوتر أخطأت في الحسابات.

هنا دخل كمال عبد الرحمن للغرفة حاملا أكياس من الأكل تكفيهم جميعا ولكنه سرعان ما لمح القلق في عيونهم ونظر للملف الموضوع على مكتب هشام وابتسم ابتسامة غامضة.

- يبدو أن هناك مشكلة في ملف شركة السماد.

هنا قص عليه هشام الشناوي ما حدث مع المدير لتتسع ابتسمة كمال الغامضة قائلا:

- لقد توقعت أن يعود إلينا الملف.

- ماذا؟

- قد لاحظت أثناء المراجعة أن الملف مجهز بعناية شديدة عدا نقطة واحدة وللأسف نقطة مفصلية.

سأل عمرو:

- وما هي؟

- عقد بيع الأرض.

- العقد موثق والأختام موجودة.

قال كمال بعد أن جلس على مكتبه:

- دعك من موضوع الأختام فأنت تعلم جيدا ماذا يمكن أن تفعل خمس ورقات من ذات المئتي جنيه، فكروا معي بهدوء وانظروا لتكاليف المشروع الضخمة، ستجد أن أقل كلفة في المشروع هي الأرض، وهذا بالطبع غير منطقي، فسعر المتر بتلك المنطقة أضعاف ما هو مكتوب بالعقد.

- هذا صحيح فلي صديق اشترى قطعة أرض مجاورة للمصنع المزعوم وكلّفته أموالا طائلة، ولكن ما معنى ذلك؟

- لا سبيل لذلك إلا بطريقة واحدة.

- أن يكون العقد مزورا.

- بالضبط، وبالتالي يجب أن تتم تعديل الحسابات كي يبدو أن الأمر منطقيا، وهذا ما لا يريده المدير.

قال مصطفى:

- وهل تظن أن المدير ومن فوقه متورطون بهذا الأمر؟ لماذا وقد تجاوزت رواتبهم الأربعة أصفار.

- كم أنت جميل يا درش، فجُلّ همك أن تصل لراتب بأربعة أصفار، الموضوع سيتجاوز الستة أصفار لذا فالأمر كبير وأنا لن أشارك في هذه السرقة مهما حدث.

- ولكن المدير يطلب التعديلات في خلال نصف ساعة فماذا سنفعل؟؟ مع العلم أن رواتبنا ستكون على المحك وأخشى أن تكون الوظيفة كلها ونعود بعد ذلك للمقاهي نبحث عن فتات يعيننا على نوائب الدهر.

- ستخسر أكثر لو خسرت ضميرك.

- ولكن ضميري لن يطعمني أو سيتشري لي شقة مثلي كأي فأر يبحث عن حجر يضمه مع شريكة حياته.

- انظر للأمور كلها، إن سرقت اليوم ستعتاد ذلك وعندها سيصبح الأمر عندك مثل الماء المالح، كلما شربت ازداد عطشك.

رد مصطفى:

- وأنا لن أشارك في هذا.

- لا حل لنا إلا بالتكاتف لمواجهة المدير.

قال عمرو:

- دعك من هذا الهراء فالمدير لن يفعل ذلك إلا بأوامر من فوقه فلن يفيد التكاتف اللهم إلا خسارة رواتبنا.

هنا عاد الكابوس يطارد عقل كمال فالعاصفة هذه المرة قوية والاختبار قاسي فهل ستصمد بذرة الخير أمام العاصفة أم تنتكس وتسير مع السائرين في دوامة الفساد والشر؟؟ يبدو أن الأمور لن تكون سهلة، لن تكون سهلة أبدا.

وفجأة فُتح باب المكتب ليدخل عصام رضوان موجها نظراته الحادة للموجودين وبدا أنه فهم من ملامحهم أنهم في نقاش حول تعديل الملف فلم يدع لهم الفرصة في التفكير مبادرا إياهم بالحديث:

- لماذا يرتفع صوتكم هكذا؟ ولماذا لم يتم تعديل الملف؟

قال كمال:

- لن أعدل أي شيء فالأمور ليست على ما يرام والعقد ليس صحيحا.

لم يُبد عصام رضوان أي رد فعل كأنه كان يتوقع الرد ثم قال:

- إذن سأنتظر استقالتك على مكتبي الآن.

- لا داعي للانتظار ها هي استقالتي جاهزة.

وألقاها في وجه عصام رضوان وترك المكتب حاملا مفاتيحه وحقيبته تاركا رفقاءه في حيرة من أمرهم، فها هم أمام اختبار حقيقي لبذرة الخير التي زرعها في قلوبهم، وما إن خرج من باب الشركة حتى التفت ونظر لنافذة مكتبه وقلبه يدق بعنف محدثا نفسه، يبدو أنه لزاما عليّ أن أرى الحلم الذي أرّقني في الحقيقة فهل سيصمدون؟ أرجو ذلك.

- ها هو الملف قد تم تعديله كما تريد يا سيدي.

نطقها هشام الشناوي في حماس مصطنع وهو يضع الملف أمام عصام رضوان.

- أحسنت يا هشام، كم هو جميل أن تكون مطيعا، ولأني أحب المطيعين سأصرف لكم مكافأة ٣ شهور كاملة، وها هي الطاعة تضيف لفتاتكم بدلا من العيش في يوتوبيا الوهم فالضمير سينقص من فتاتكم بل قد يضيع الفتات كله.

- شكرا سيدي نرجو أن نكون عند حسن ظنك.

مر يومان على تلك الواقعة وأصبحت الغرفة ٢١ كئيبة لا حديث يدور فيها، فقط رفاق المكتب يتحاشون النظر مع بعضهم البعض ولسان حالهم يقول: هل نحن على صواب عندما عدنا لحالنا القديم؟؟ أم الصواب كان اللحاق بكمال عبد الرحمن؟؟ والغريب أنه لم يتواصل أحد منهم مع كمال عبد الرحمن ما بين خوف من بطش المدير وما بين إحساس الخزي من عدم حتى التعاطف مع كمال الذي غيّر الكثير من نظرتهم للحياة.

- الآن تم تعديل الملف كما نريد، ولكن الأمر لن يسلم حتى نزيل أي أثر لذلك العقد المزور، فصفقة العمر لن نفقدها أبدا.

نطقها عصام رضوان ببرود شديد وهو ينظر لدخان السجائر الفاخر الذي يتراقص أمامه، وقطع صمته رنين هاتفه المحمول فنظر نحوه بلا مبالاة، وما إن رأى اسم المتصل حتى قفز من مقعده ليلتقط الهاتف في احترام مبالغ ويقول:

- خادمك عصام رضوان، أوامرك يا فندم.

- هل عدّلت الملف يا عصام؟

- كما أمرت يا سيدي.

- إياك أن تترك دليلا خلفك ولا تقلق لن تفقد شيئا حينها سوى رقبتك.

رد عصام رضوان متحسسا عنقه:

- ثق بي يا فندم، لن تجد أثرا للعقد المزور بعد اليوم.

أغلق عصام الهاتف وهو يتصبب عرقا وأرخى رابطة العنق كي يسمح للهواء أن يدخل رئتيه الممتلئة بأطنان من أدخنة التبغ، ولكن فجأة تحجرت عيناه عندما تذكر ثغرة لم يلق لها بالا، ثغرة بسيطة ولكنها قد تكلفه حياته.

فتح عصام رضوان باب الغرفة ٢١ في عنف موجها حديثه لهشام:

- أين النسخة الإلكترونية من ملف مصنع السماد؟

- موجودة على كمبيوتر كمال عبد الرحمن.

- أحضرها حالا.

- سأنسخها لحضرتك يا أفندم وأحضرها لمكتبك.

- كلا سأنتظر هنا، فقط أسرع.

فتح هشام الجهاز ليبحث عن الملف ثم قال:

- ما هذا؟؟

- ماذا حدث؟

- الملف كان موجودا على هذا الكمبيوتر ولكني للأسف لا أجده.

هنا استشاط عصام رضوان غضبا وأمسك بتلابيب هشام الشناوي حتى كاد يختنق ولولا تدخل عمرو السعيد ومصطفى السويفي لكان هشام الشناوي مقبورا.

- اعلموا أنه إن لم يظهر هذا الملف لن تكفيني أعناقكم، لن تكفيني أبدا!

وخرج غاضبا من الغرفة ٢١ تاركا رفقاء المكتب في حيرة من أمرهم، أين ذهب الملف؟؟

مرت نصف الساعة استمر فيها هشام الشناوي في البحث على الكمبيوتر الذي كان يستخدمه كمال عبد الرحمن دون جدوى.

- ليس لها إلا تفسير واحد.

نطقها هشام في ارتباك.

رد عمرو:

- وما هو تفسيرك؟

- الملف موجود مع شخص شخص نعرفه جيدا.

- كمال؟؟

- بالفعل هو من أخذ الملف لأنه كان يشعر بنوايا المدير عصام رضوان.

- وما العمل؟ بالطبع لن يعطينا الملف فهو يعلم أهميته.

- وإن رفض؟

- سنأخذه بالقوة إن اضطررنا.

- قال

- بالقوة!! هل ستضربونه أم تقتلونه؟

رد عمرو:

- كل الخيارات متاحة.

رد مصطفى:

- وهل نسيتم ما فعله معنا؟؟ هل نسيتم أن جعلنا أسوياء؟؟

- كلا لم ننس ولكنّها رقابنا قبل وظائفنا، هل كونك سويا سيجعلك تكمل الشهر دون اقتراض؟؟ هل ستفطر خيرا وتتغذى تسامح؟؟ أم ستتعشى أخلاق؟؟ هذا العالم لا مجال إلا للقوي، القوي هو الذي يضع الطريق التي تمشي عليه.. فلننظر لحالنا، نعم رأينا أشياء جميلة في أنفسنا لم نكن نعرف بوجودها ولكنّها لا تسمن ولا تغني من جوع، فكل منا قد قرب من الشيب ولم يجمع ما يكفيه لاستئجار غرفة في أحد المقابر كي يبدأ في بناء أسرة يستند عليها في أوقات وحدته الطويلة، هل حديثي صحيح أم هناك تجنّي على كمال؟

قال مصطفى:

- للأسف صحيح، فقد سئمت من مراسلة الساقطات والحياة في فلك الحب الوهمي.

رد عمرو:

- فلنكن عمليين، ماذا سنفعل؟

- فلنتصل به ونُظهر أننا اشتقنا إليه لنقابله ونجبره على إعطائنا النسخة الألكترونية للملف.

- وهل تظن أني لم أفعل ذلك؟ قد حدّثته بالفعل ولكن الغريب أنه لم يذكر شيئا عمّا حدث في المكتب ولم يعاتبني.

- بالطبع لن يعاتبك فنقاء روحه سيمنعه من مجرد التفكير في معاتبتك.

وفجأة سمعوا صوت عصام رضوان ينادي عليهم بغضب شديدة فذهبوا إليه جميعا وقلوبهم تدق بعنف في انتظار ما سيحدث.

- يبدو أنكم لم تصلوا لأي شيء.

- للأسف بحثنا ولم نجد شيئا ولم يبق أمامنا سوى تفسير واحد.

- وما هو؟

- أن الملف بحوزة كمال عبد الرحمن.

هنا تراجع عصام رضوان للوراء متحدثا بهدوء غير معتاد:

- هذا أمر جيد وبالطبع لديكم خطة للحصول على الملف.

- سنحاول بالطبع ولكن..

- لا يوجد لكن فقط أريد أن أسمع كلمة سنحصل على الملف، بل وهذه المرة لن أقول لكم أن الملف يساوي أعناقكم كلا بل يساوي ثلاثين ألف جنيه لكل منكم.

نظر الثلاثة لبعضهم البعض عندما سمعوا ذلك الرقم، فأغناهم على الأرجح لم يمسك بربع هذا المبلغ ولو لمرة في حياته ليبتسم عصام رضوان في أعماقه محدثا نفسه: لن يضرنا الكثير إن ألقينا إليهم بكثير من الفتات هذه المرة فالعصا يجب أن تتبعها جزرة.

قال عمرو:

- سنحصل على الملف حتى لو كلفنا ذلك التخلص من كمال عبد الرحمن نفسه.

عاد الثلاثة أدراجهم للغرفة وقد اجتمعت عقولهم وقلوبهم على تلك المكافأة التي ستغير من حالهم لمثانية شهور مقبلين على الأقل، ولم يلحظوا أنهم قد عادوا لحالهم قبل التعرف على كمال عبد الرحمن بل صاروا أسوأ.

- الحل عندي.

نطقها مصطفى السويفي بحماس شديد، ذلك الحماس الذي يزيد من شعلته أموال المكافأة.

التف عمرو السعيد وهشام الشناوي حوله في انتظار الحل ليكمل مصطفى الذي التقط سيجارة غريبة الشكل من جيبه قائلا:

- سنبعد كمال عبد الرحمن عن منزله وأنتما ستتوليان ذلك وأنا معي مفتاح منزله سأتسلل للمنزل فأنا أعرف منزله جيدا من الداخل وأعرف أين يحتفظ بأشيائه الثمينة.

تعجب عمرو:

- معك مفتاح منزله! لماذا أعطاك نسخة منه؟

أشاح مصطفى بوجهه جانبا وقد تذكر ما فعله معه كمال عبد الرحمن ليكمل حديثه وقد بدت بعض الدموع تحاول الفرار من عينيه:

- إنها قصة طويلة قد أخبركم بها فيما بعد.

- لا وقت نضيعه فقد يغير المدير رأيه ونفقد المكافأة، سأتصل بكمال الآن لأقنعه بأن نتقابل كما تعودنا على ضفاف الكورنيش.

تعجب كمال عبد الرحمن من طلب هشام الشناوي بمقابلته خارج منزله بحجة أنه -أي هشام- يريد أن يتحدث معه في الهواء الطلق، ولكنه لم يلبث أن خرج من منزله أملا في إنقاذ ما تبقى من بذرة الخير لديهم.

وبالفعل مرت الدقائق مسرعة حتى وصل كمال عبد الرحمن للمكان الذي اعتاد فيه مقابلة رفقائه وبالفعل وجد هشام الشناوي وعمرو السعيد فقط فبادرهما بالسؤال:

- أين مصطفى السويفي؟ لماذا لم يأتِ معكم؟

رد عمرو:

- لقد ذهب لقضاء أمر خاص به وسيلحق بنا.

- فليأتِ على خير، فلتطمئنوني على حالكم.

رد هشام في ارتباك: نحن بخير، فقط نحاول الوقوف أمام ضغوط المدير لتعديل الملف الخاص بشركة السماد، لا تقلق علينا فقط نريد أن نطمئن عليك.

رد كمال بابتسامة مصطنعة:

- أنا بخير وبدأت البحث عن عمل جديد.

رد عمرو:

- ألا تفكر في الرجوع للشركة؟

- لا مجال للعودة لمكان سيجبرني على القبول بالفساد مقابل الفتات.

- حتى لو كانت هناك مكافآت بالعمل؟

نظر هشام الشناوي شذرا لعمرو السعيد الذي أحس بخطأ زلة لسانه ليكمل عمرو حديثه بارتباك:

- أقصد اننا قد نحصل على مكافآت إن بقي عملنا منظما كما علمتنا.

رد كمال بصرامة:

- الحدأة لا تلقي بالكتاكيت والفتات الزائد لن يكون سوى بمقابل تعرفونه جيدا وأنا أرفض ذلك المقابل.

وساد الصمت بينهم لدقائق حيث لم يجد هشام وعمرو السعيد مزيدا من الكلمات في الوقت الذي أيقن كمال عبد الرحمن أن تجربته فشلت، فالحق لن ينتصر أمام الشهوات، فالنفس البشرية لا تريد أن تصبح سوية ولو على سبيل التجربة. وفجأة دق هاتف هشام الشناوي بنغمة أحد المهرجانات الشعبية التي لا تعلم ماذا يُقال فيها فقط موسيقى صاخبة مع بعض الكلمات المسجوعة، ليبتسم حينها هشام ابتسامة بسيطة لاحظها بالطبع كمال ولم يعلق عليها ليشير هشام لعمرو بالذهاب.

- يبدو أن مصطفى سيتأخر فلنذهب الآن وسنلتقي قريبا يا صديقي.

أومأ كمال عبد الرحمن برأسه ولم يلتفت إليهما وهما يمضيان بعيدا وبالطبع لم يلمح الابتسامة التي ارتسمت على وجه هشام الشناوي حيث وصلته العلامة المتفق عليها مع مصطفى السويفي بإتمام المهمة حيث استغل الأخير انشغال كمال بمقابلة رفيقيه وتسلل للمنزل وحصل على الفلاشة التي تحتوي النسخة الإلكترونية لملف مصنع السماد والآن يستعدون للحصول على المكافأة الكبيرة.

لم يستطع كمال عبد الرحمن التحرك من مكانه كمدا على الحال التي وصل إليها رفقاؤه في الغرفة ٢١ فها هو الكابوس الذي رآه في نومه قد تحقق أمامه ولم تستطع بذرة الخير الصمود أمام المجتمع الفاسد وما إن همّ كمال بالتحرك حتى دق هاتفه برقم مخفي ليجد صوتا يتحدث ببرود:

- من معي؟

- لا يهم، فقط أحببت أن أُعلمك أنك فشلت مرة أخرى.

- لن أيأس سأقوم مرة أخرى.

سأل المتصل بسخرية:

- متى ستصلح العالم؟

- لا يهمني متى ولكني سأفعل يوما ما.

- ستجدني أمامك حينها أيضا.

- الخير لا بد يوما وأن ينتصر.

- ومن قال إنك الخير؟

- انظر لنفسك في المرآة وستعرف.

- أعلم شكلي جيدا ولكنّك لا زلت تعيش في وهم يوتوبيا الفاضلة تناطح الصخر ولن تصل لشيء.

- كثرة النطح ستفتت الصخر والأيام بيننا.

ولم يكمل كمال حديثه حيث أغلق المتصل الخط بصفاقة تاركا كمال عبد الرحمن في حيرة من أمره وأحس أنه فقد كل تركيزه وقدرته على تسيير أمور حياته، ولكن بقي له أمل أخير، مصطفى السويفي، فهو بالطبع لن يخونني مهما حدث، ويكفيني أن جزءا من التجربة قد نجح.

وما إن دخل لمنزله حتى وجد المنزل قد ملأته الفوضى مما يدل على أنها ليست مجرد محاولة سرقة عادية بل هناك من يبحث عن شيء ما، وفجأة تذكر كمال الخزينة الصغيرة التي يضع فيها أوراقه المهمة والفلاشة التي تحوي الملف الإليكتروني لمصنع السماد، وعندما وصل إليها وجدها فارغة والفلاشة غير موجودة! هنا أُسقط في يده فلا أحد يعرف مكان الخزينة الصغيرة سوى مصطفى السويفي الذي لولا مساعدة كمال لكان الآن غريقا في مستنقع المخدرات، هنا أعلن كمال عبد الرحمن انتهاء تجربته على رفقاء الغرفة ٢١ بالفشل، ولكن بقي لديه سؤال هام، لماذا فعلت هذا يا مصطفى؟

نطقها كمال وهو يغالب دموعه أمام مصطفى السويفي الذي رد عليه بلا مبالاة وهو ممسك بسيجارة يبدو أنها سيجارة غير بريئة.

- المال يا عزيزي، المال يفعل كل شيء.

- ولكن نفسك أهم من المال؟؟ أتذكر ما فعلناه سويا لتخرج من وهم المخدرات؟

- لا أريد أن أتذكر فقد فعلت بي أسوأ شيء؟

- أسوأ شيء!! كيف؟؟

- أنك أعدتني للواقع، أعدتني لشخصي الحقيقي، إنسان تافه يعيش على الفتات الذي يلقيه إليه أسياده، ذلك التافه المربوط في ساقية الحياة ولا يملك الخروج منها وإن فكر في الخروج لن يجد إلا السياط التي تجلد ظهره، فيفقد حينها العبودية الجميلة التي كان يعيشها فحتى فتات الفتات الذي كان يُلقى إليه لن يعود أبدا كما كان.

- ولكنّك ستعود للوهم.

- ما أجمله من وهم، هناك لا تجد للحزن طريقا، كل شيء مباح لك في الوهم، الثراء الفاحش، السيارة الفخمة، الفتيات الجميلات، وبالمال الذي سأحصل عليه لن أعود للواقع إلا قليلا وسأبقى سعيدا بالوهم الذي أعيش

فيـه، أمـا أنـت يـا صـديقي فأكمـل سـيرك فـي وهمـك الخـاص بصـلاح وإصلاح العالم.

ألقى مصطفى السويفي السيجارة جانبا تاركا كمال عبد الرحمن بصفاقة ولم ينتظر رده ليتوارى خلف الأشجار متجها نحو مكانه الملهى الليلي الذي يعيش فيه الوهم.

- ومن هنا انتهت صلتنا بكمال عبد الرحمن، فقد أغلق هاتفه وترك شقته التي كان يسكن بها.

نطقها هشام الشناوي وهو يغالب دموعه في الوقت الذي لم يستطع د. منصور النطق مما سمعه عمّا قاساه ذلك الراقد حتى كاد أن يوجه أقسى اللكمات متبوعة بأعتى الكلمات تجاه هشام الشناوي ولكنّ دموع هشام و "برستيج" د. منصور منعاه من ذلك.

- حقيقة لا أجد ما أقوله فكيف رددتم الحسنى بالإساءة هكذا؟؟ وماذا فعل بكم كمال كي تغرسوا ذلك الخنجر في ظهره؟

- الآن نعض أصابع الندم بعد أن فقدنا ذلك النقي الذي أضاء لنا زوايا أنفسنا المظلمة وأعادنا أسوياء ونحن لا نريد أي شيء الآن سوى أن يعود لوعيه وحياته.

- نحن نبذل قصارى جهدنا ولكن الأمر سيتطلب وقتا طويلا، ولكن أخبرني أين باقي رفقائك؟؟ أين مصطفى السويفي وعمرو السعيد؟

- لم نتحمل أن نرى بعضنا البعض في الغرفة ٢١ فقد ترك عمرو السعيد الشركة وذهب للخليج بحثا عن عمل أما مصطفى السويفي فقد ذهبت المخدرات بعقله حتى طُرد من الشركة ولم نعرف عنه شيئا حتى الآن.

- كما تدين تدان، أعدك يا هشام أن أتصل بك إن حدث جديد.

- سأكون ممتنا لك يا دكتور.

عاد د. منصور للمستشفى وقد زاد تعاطفه مع ذلك الراقد الذي لم تتغير ملامحه منذ أن جاء للمستشفى متسائلا في حزن، كيف يستطيع هؤلاء الأنقياء العيش وسط ذلك المجتمع الفاسد؟؟ هم يستحقون العيش في يوتوبيا وأنى لهم هذا..

لم يستطع منصور المكث عاجزا بجوار سرير الراقد فنبه على أحد الممرضين الجلوس بجواره وذهب ليمدد جسده المنهك في غرفته، والتي يطلق عليها -اصطلاحا لا فعلا- (استراحة الطبيب)، حيث ذلك السرير المتهالك الذي كاد الصدأ يفتح بأركانه الحديدية كسرطان حقير

يفتك بضحيته الضعيفة، ناهيك عن الملاءات المتسخة التي علقت بها الأدران على مدار السنين، فبدت أنها من مخلفات حرب الهكسوس، ولا داعي بالطبع ذكر رائحة الغرفة حيث تآكلت جدرانها بفعل انسداد دورة المياة التي تعلو الاستراحة وإن كانت -أي الجدران- شاهدة على توقيعات للأطباء الذين مروا على تلك الاستراحة، فتشهد على أحلامهم الضائعة في مستقبل مريح بعد سنوات دراسية تشيب لها العقول، ولكن منصور لم يعبأ لكل هذا فقد اعتاد عليه وبقي قلبه معلقا بحال ذلك الراقد ولكن مهما طالت مقاومة الجسد فالنوم سلطان قد نسج خيوطه حول منصور الذي استسلم سريعا لبراثنه ليجد نفسه في مسرح واسع بإضاءاته المبهرة والغريب أنه وجد نفسه وحيدا على خشبة المسرح والجمهور يملأ الصالة في انتظار العرض ومنصور لا يعلم ماذا يقول فوقف مرتبكا ولم ينجده إلا صوت ينبعث من الكواليس ليخرج منها ملثم يتشح باللون الأبيض.

قال الملثم:

- هل لا زلت تبحث عني؟؟

- من أنت؟

فكشف الملثم عن وجهه المبتسم:

- هل لا زلت لا تعرفني؟

- كريم!! عفوا كمال!! عفوا من أنت منهم؟

- لا يهم الاسم فالأفعال ستبقى لا الاسم.

- على الأقل كي أناديك به

- نادني كما تحب.

- هل أنت حزين لأنك لم تنجح؟

- كلا بل حزين أنهم قد فشلوا.

- هم يستحقون ذلك.

- لا أحد يولد بفطرة شريرة ولكن المجتمع لا يرحم.

- دعك منهم نبئني عنك، هل أنت حي أم ميت؟؟

- قد أكون بعالمكم ميت ولكنني حي بعالمي الذي أريده.

- أي عالم؟

- ذلك العالم الذي اختفت فيه الأحقاد، عالم يسود فيه الحب، عالم لا حروب فيه ولا دمار، ليس به سرقة أو فساد، عالم يحيا فيه الإنسان كإنسان وليس كبهائم تدور في رحى لقمة العيش.

- فلتأخذني معك فلا مجال في عالمنا لما تقول.

- بل موجود وأقرب إليك مما تتخيل.

- ماذا؟ أين؟؟

قال الملثم واضعا يده على صدر منصور :

- ابحث عنه وستجده.

- فلتساعدني وأخبرني كيف السبيل.

وفجأة دوى صوت عال ونظر منصور حوله بتعجب فقد اختفى المسرح وظهر مكانه تلك الجدران العطنة في الوقت الذي استمر ذلك الصوت المزعج ليستعيد منصور وعيه فالصوت المزعج هو رنين هاتفه، ذلك الجهاز اللعين الذي لا يترك لك فرصة أن تستمتع بكوب القهوة حيث لا يكف عن الرنين كأن العالم قد تذكر فجأة أنه يريدك لإنقاذه من أسراب السلطعون التي تهاجم عجلات التنمية في دول حروب الجيل السابع، ولكنّه أصبح يمثل عبئا ورعبا فيكفي أن تهاجمك كل هواجس مصائب

العالم حين تنساه ذلك الملعون فلن يصل إليك أحد ليخبرك أن إطار سيارتك قد سرق رغم أنك لا تملك سيارة من الأساس، وما إن أفاق منصور حتى توقف الرنين المزعج وما هي إلا ثوان حتى عاود نفس الرقم الاتصال.

- د. منصور؟

رد منصور وهو يغالب التثاؤب:

- نعم هو بسماعته، من أنت؟

- رجاء أريد أن أطمئن على كمال عبد الرحمن، هل هو حي أم لا قدر الله؟

- من أنت؟؟

- سأخبرك بكل شيء يا بني ولكني أريد الاطمئنان عليه أولا.

رد منصور متململا:

- لا يزال في غيبوبته يا حاج ولا جديد.

- الله يحفظه ويشفيه، ممكن أقابلك يا ابني؟

- أنا موجود بالمستشفى العام فلتأتني في أي وقت.

- كلا سيكون من الخطورة أن أقابلك بالمستشفى.

هنا اعتدل منصور مبديا اهتمامه وقال:

- خطورة!! خطورة على من؟؟

- عندما أقابلك ستعلم كل شيء، فالأمر ليس هينا، فلتقابلني عند مقهى الأسيوطي المجاورة لمركز الشباب بعد ساعة من الآن، أرجوك يا بني لا تتأخر.

- لن أتأخر يا حاج، ولكن كيف سأعرفك؟

- فقط اذهب للمقهى وأنا سأصل إليك.

أغلق منصور الهاتف وقلبه يدق بعنف وخاطب نفسه قائلا:

- ما الذي تخبئه يا كمال؟؟ ومن الذي يريد أن يؤذيك؟

مرت الدقائق بطيئة حتى جاء الموعد وترك منصور مكانه بالمستشفى بعد أن أكد على الممرض المساعد متابعة المستشفى وعدم الانشغال باللعب على هاتفه المحمول واعدا إياه بالانصراف مبكرا حال التزامه، وذهب للمقهى المتفق عليه في الموعد تماما وهو ينظر حوله بقلق وهو

يتساءل كيف سيعرفه المتصل، ولكن سرعان ما ابتسم ساخرا، نعم إنها معضلة شديدة، فكيف سيتعرف المتصل على طبيب يرتدي بالطو أبيض قد امتدت بطنه أمامه في كبرياء في الوقت الذي تتطاير فيه خصلات شعره المجعد الذي لم يرَ الشامبو منذ اكتشاف القشرة، فلنخبئ السمّاعة الطبية كي نزيد من حيرة المتصل فيتعب قليلا كي يتعرف على شخصي الكريم، وأفاق منصور من ابتساماته الساخرة عندما وجد من يربت على كتفه متسائلا:

- هل أنت الدكتور منصور يا بني؟

التفت منصور ليجد عجوزا قد بلغ منه العمر مبلغه قد تكاثرت تجاعيد وجهه منبئة بتجارب الحياة المريرة ويتكئ على عصا عتيقة ليجيبه:

- نعم أنا يا حاج، ماذا تريد؟

رد العجوز:

- أنا من اتصلت بك يا بني.

قام منصور من على مقعده ليساعد العجوز على الجلوس الذي شكره ودعى له بوافر الصحة ورد عليه منصور بابتسامة حانية قائلا:

- خيرا؟؟ ماذا تريد مني يا والدي؟

- أريد أن أطمئن على كمال يا بني.

- كما قلت لك في الهاتف، لا جديد غيبوبة تامة ولا نعرف سببها.

- شفاه الله والله ما رأينا منه إلا كل خير.

- آمين، من أنت وماذا تعرف عن كمال؟

- أنا اسمي عمك الحاج مبروك، مبروك الغرباوي.

- مبروك! قد سمعت اسمك من قبل، هل أنت الساعي الذي كان مع كمال في الشركة؟؟

رد الحاج مبروك متعجبا:

- نعم يا بني، ولكن كيف عرفت؟

- قد أخبرني هشام الشناوي عنك.

ارتعب الحاج مبروك وقد بدت عليه أمارات الرعب:

- أو جاء هشام لهنا؟؟ وماذا فعل بكمال؟

رد منصور وقد أُسقط في يديه:

- لم يفعل أي شيء لكن كان ودودا جدا وحكى لي قصته مع كمال وأوصاني بإبلاغه عن أي تطورات.

- وهل زاره أحد آخر؟

- نعم، جاءني شخص متعالٍ يتحدث من أنفه كأنما ملك الدنيا وسأل عليه بتكبر وترك لي رقم هاتفه وانصرف في سيارة فاخرة.

- إنه عصام رضوان، يالحزني قد عرفوا مكان كمال وسيؤذونه.

- ماذا؟؟ لا أفهم شيئا يا والدي، قد أرعبتني!

- سأحكي لك يا بني، ولكن عدني أن يبقى حديثي سرا، فلو عرفوا ما سنقول سيؤذون الأستاذ كمال بل لن يُبقوه حيا من الأساس.

وأخذ يسرد قصته ومنصور يتابعه في شغف فالأمر بالفعل لم يكن هينا، لم يكن هينا تماما.

ذهب الحاج مبروك مبكرا كعادته لعمله وهو يئن هذه المرة من آلام صدره فهو مصاب بقصور بالشرايين التاجية منذ فترة، ولكن ضيق ذات اليد جعله يهمل متابعة العلاج، فهو لا يزيد عن كونه ساعيا في إحدى الشركات وبالكاد يكفي نفسه وأسرته الصغيرة الغذاء فالدواء رفاهية لا يملكها ناهيك عن الفحوصات الطبية المعتادة لمتابعة حالته

ستكون ضربا من الرفاهية التي قد يملكها في الجنة، وبالتالي لا يجد أمامه سوى بعض الأقراص مجهولة المادة الفعالة التي يصرفها من التأمين الصحي والتي يكررها له الطبيب المعالج دون أن ينظر لوجهه أصلا فضلا عن أن يقوم بتوقيع الكشف الطبي عليه فلا يجد من يعينه سوى إيمانه بأن العمر واحد والرب واحد، ولا مجال لرفاهية التوقف عن العمل فكرابيج المصاريف لن ترحم ظهره المنحني، فذلك العمل الذي حصل عليه بعد وصوله لسن المعاش يعينه مع معاشه الضئيل على متطلبات المعيشة الغالي، وقد يعطف عليه بعض الموظفين ببعض المال مما يجعله متمسكا أكثر بذلك العمل.

- فلأجهز القهوة لغرفة أولئك الشباب المرح بالغرفة ٢١ فهم لا يبخلون علي ببعض الجنيهات مع كل فنجان قهوة، ولكنّهم للأسف مع حسن معاملتهم لي فهم شباب قد فسدت أخلاقهم يبدو ذلك من غرفتهم القذرة المعبقة برائحة السجائر والأوراق المهملة في جوانب الغرفة ناهيك عن تبادلهم النكات القبيحة على الملأ دون مواربة أو استحياء من زملائهم.

يقول

- ها هي قهوتكم يا سادة.

- رائحة قهوتك تخترق خلايا عقلي كأنها الترامادول، ألن تخبرني بتعويذتك الفرعونية التي تصنع بها القهوة؟

- لا توجد تعويذة يا بني ولكنّها خبرة السنين.

- فلتجهز فنجانا لزميلنا الجديد الأستاذ كمال عبد الجواد.

- عفوا، كمال عبد الرحمن.

قالها بأدب جمّ لم يعهده عم مبروك على ساكني الغرفة.

- كيف تريد قهوتك يا أستاذ كمال؟

- مظبوطة يا والدي الكريم.

- فقط أعطني دقيقتين وأحضرها لك.

خرج عم مبروك من الغرفة وهو يهز رأسا تأسفا على ذلك الشاب المحترم الذي بالطبع لن يمر عليه يومان إلا ويصبح مثل رفقائه مدخنا شرها، بذيئا بل ويفوقهم في نكاتهم القبيحة.

مرت الأيام وبدأ عم مبروك يشعر بالاختلاف الذي حدث لرفقاء الغرفة، فياللمفاجأة! فبدلا من أن يصبح كمال مثلهم أصبحوا هم مثله، فزاد إعجابه وحبه الفطري للوافد الجديد الذي كان يصر كل مرة أن يعطي

عم مبروك بقشيشا مبالغا فيه مع كل فنجان قهوة يصنعه له، بل وزاد على ذلك تودده وتقربه المستمر منه فيسأل عن حاله يوميا وعن أولاده لدرجة أنه -أي عم مبروك- فوجئ بكمال عبد الرحمن يزوره في منزله حاملا بعض الكتب التعليمية لابن عم مبروك الكبير الذي لم يكمل تعليمه ويعمل بأحد محلات البقالة ويجلس معه لفترات طويلة يعلمه ما فاته حتى صار الابن جاهزا لدخول الاختبارات مرة أخرى بمساعدة كمال حتى جاء اليوم الذي لن ينساه عم مبروك لن ينساه أبدا.

- فلتأتوا سريعا يبدو أن عم مبروك ليس بخير!!

نطقها كمال عبد الرحمن بلهفة وهرع الجميع للمطبخ الصغير الذي جلس فيه عم مبروك يتصبب عرقا ممسكا بصدره ويكاد صوته لا يُسمع فحملوه سريعا نحو أقرب مستشفى ليعلن الطبيب لهم أنها أزمة قلبية وقد ينجو منها ولكن سيتطلب حجزه بالعناية المركزة، نظر رفقاء المكتب لبعضهم البعض، فالحجز بالعناية المركزة ليس بالأمر الهين، فإذا أردت العلاج فلتدفع أولا أو تُلقى في استقبال أي مستشفى حتى يظهر لك صاحب كما يقولون، ولكن لم يكملوا نظراتهم حتى أخرج كمال عبد الرحمن من جيبه المبلغ المطلوب حيث كان يجهزه من فترة لشراء سيارة ترحمه من ازدحام المواصلات وتم حجز عم مبروك في الرعاية ومر يومان وتحسنت حالته وخرج من المستشفى وعاد لعمله كالمعتاد

ليجد كمال عبد الرحمن قد جهّز له احتفالا بعودته سالما مؤكدا له أنه - أي كمال- لم يشرب قهوة منذ يوم مرضه فلا قهوة تعلو فوق قهوة عم مبروك الذي بكى من فرط ابتهاجه بما فعلوه من أجله.

لم يتمالك د. منصور دموعه مع انهمار دموع عم مبروك الذي توقف عن الكلام بعد أن كاد صدره يختنق ليخرج ذلك القرص العجيب "دينيترا" فيضعه تحت لسانه ليزول ألم الصدر سريعا.

- يبدو أنك تحب كمال عبد الرحمن كثيرا.

- أحبه كأبنائي والله يشهد على كلامي.

- أصدقك بالفعل يا عم مبروك و لكني حتى الآن لم أعرف ما الخطورة على حياة كمال عبد الرحمن.

- سأكمل لك فقلبي الآن عاد لكفائته بعد القرص الذي وضعته تحت لساني.

- تبدو مختلفا اليوم يا كمال يا ابني.

نطقها عم مبروك عندما رأى كمال عبد الرحمن يدخل عليه المطبخ ليطلب قهوته المعتادة فقد بدا من عينيه المنتفختين أنه لم يذق طعم النوم منذ يومين على الأقل.

- يبدو أني فشلت يا عم مبروك، فأحوال رفقائي لم تعد كما كانت، فبعد أن عادوا لبشريتهم السوية انتكسوا ولم يصمدوا أمام أول عاصفة فانحنوا لها.

- ماذا حدث يا بني؟

- كان هناك ملف خاص بأحد مصانع السماد التي تشرف عليها الشركة وللأسف الملف به تجاوزات كثيرة، فيكفي فقط أن تعرف أن عقد الأرض مزوّر، وبعد أن اكتشفنا ذلك اعتدى علينا المدير كي نقبل بالتعديلات والتزوير ولكني رفضت رفضا تاما وتوقعت أن يرفض رفقائي معي ذلك ولكنّهم للأسف لم يفعلوا وانكبوا ينفذون ما أمر به المدير فقدمت استقالتي وتركتهم.

- استقالة!! لماذا يا بني؟؟

- لا أقبل بالتزوير حتى وإن كلفني ذلك وظيفتي، ولكني هنا كي أطلب منك طلبا لك الحق في رفضه.

- اعتبرني موافق قبل أن تقول.

- خذ هذه الفلاشة واحتفظ بها ولا تخبر أحدا أنها معك ولا تعطها لأحد حتى أخبرك، هذه الفلاشة بها دليل إدانتهم وسيبحثون عني حتى يحصلوا عليها.

- لا تقلق يا بني سأحتفظ بها حتى لو كلفني ذلك حياتي.

- وهذا ظني بك أيها الوالد الحبيب.

- ولكني خائف عليك يا ولدي الحبيب.

- لا تخف علي فالخير سيحفظ أهله.

- وكيف سأطمئن عليك؟

- سأتصل أنا بك حين أرتب أموري.

هنا ارتمى عم مبروك في حضن كمال عبد الرحمن يحضنته بشدة فقد تكون آخر مرة يسمع فيها صوت ذلك الشاب الطيب.

- رااائع ظننته درويشا لا يفكر.

نطقها منصور وهو يصفق فرحا كطفل حصل على الدرجات النهائية في السنة الأولى من رياض الأطفال.

- ليس كل محترم درويشا، بل كان فطنا لكل ما يحاك حوله.

- لا أحتاج لذكاء متقد كي أؤكد أن زيارة هشام الشناوي لكمال كانت بحزن مصطنع مغلف بدموع التماسيح.

- بالفعل هم يسعون خلف كمال للحصول على الفلاشة.

- لا أعرف من أين ستجد المصائب ثانية يا كمال.

-لا تقلق يا دكتور فالخير يحفظ أصحابه.

- سأضطر للرجوع للمستشفى وسنتواصل باستمرار يا عم مبروك.

- كلا لا أريد تواصل معي كي لا يلحظ أحد معرفتي بك كي يظل سر كمال في أمان.

- أنت على صواب يا عم مبروك.

عاد منصور للمستشفى ليجد الأمور كما هي فقط لمح بعض الورود بجوار غرفة ولما سأل عرف أن إبراهيم الدوكش قد عاد بعد فترة انقطاع لزيارة كريم الشرقاوي أو كمال عبد الرحمن أو أيّا كان اسمه ليدخل على الراقد في غرفته وهو على نفس حاله ليربت على كتفه بحنان:

- لقد عانيتَ كثيرا أيها الراقد بل ولعل نجاتك تكون في غيبوبتك، صدقا لا أعرف كيف أساعدك ولكنّي أعدك أن أظل بجانبك مهما كلفني الأمر.

وما إن خرج من الغرفة حتى وجد من ينادي عليه:

- دكتور منصور؟؟

فالتفت ليجد امرأة ترتدي ملابس أنيقة ويبدو من عطرها الفواح أنها ذات شأن كبير.

- نعم أنا د. منصور، من أنت؟

المرأة: أنا هنا بخصوص حالة يوسف، يوسف المصري.

- عفوا ليس لدي مرضى هنا بهذا الاسم.

أخرجت المرأة صورة من حقيبتها الفخمة وأعطتها لمنصور قائلة:

- ها هو يوسف المصري أظنك تعرفه.

أمسك منصور بالصورة بلا مبالاة ولكن سرعان ما ارتجف قلبه وتجمد مكانه فقد كانت الصورة لشخص يعرفه، يعرفه جيدا فالصورة كانت لكمال، كمال عبد الرحمن.

(٦)

- عفوا هذا ليس يوسف المصري هذا كمال عبد الرحمن ولديّ من الأدلة على ذلك.

نطقها د. منصور وهو يفتح عينيه المثقلتين بالنوم بعد أن كاد الصداع اللعين يقتله جرّاء ما لاقى منذ ظهر ذلك الراقد في حياته.

ردت المرأة الأنيقة وقد كابدت لكي لا تظهر دموعها:

- لن أخطئ فيه أبدا لن أخطئ في الشخص الوحيد الذي أحببته بصدق.

انتفض منصور عندما سمع تلك الكلمة "الحب"، تلك الكلمة التي سمع عنها قديما منذ أن نبت شعر شاربه في المرحلة الإعدادية مع سماعه لأغاني المطرب الصاعد علاء عبد الخالق، ولكن بالطبع تم محوها من العقل بعد أن دخل النفق المظلم الذي بدأ بدخوله لمعترك تلك السنة المفصلية التي أعجزت العقول وأرهقت الجيوب، تلك السنة التي عندها تتوقف حياة العائلة كلها ليتجاوزها ببراعة ممنيا نفسه بكلية العظماء، حيث تلقفته جثث المشرحة لتوقظه رائحة الفورمالين وهو يتدحرج ككرة الطين من سنة لأخرى منها إلى أن تلفظه الكلية لاستقبال المستشفى العام.

لم يعرف منصور كيف يرد على السيدة الأنيقة ولكن لحسن الحظ أن مدير المستشفى غير متواجد اليوم فاليوم ليس يوم مرور للمفتشين فسيستطيع منصور التحدث مع السيدة الأنيقة في غرفة المدير لذا أشار إليها أن تتبعه نحو غرفة المدير حيث بالطبع لن يجلس معها في مقهى سليم الدولي فرائحة المقاعد كفيلة بتعرضها لصدمة عصبية تلقيها في غيبوبة بجوار الراقد ناهيك عن لون الأكواب التي سيشربون فيها الشاي التي قد يجعلها صائمة أبد الدهر، دخل منصور للغرفة وتبعته السيدة الأنيقة ليبادرها بالسؤال:

- هل أحضر لحضرتك قهوة أم مياه غازية؟

ردت السيدة الأنيقة:

- شكرا لا أريد، فقط ما حالة يوسف؟

نظر إليها منصور متوجسا فأكملت حديثها بثقة محاولة إخفاء دموعها:

- لا تقلق فحياة يوسف المصري لدي هي أغلى من حياتي.

- حقيقة حالته غريبة فهو على حالته السريرية كما هو، غيبوبة بدون سبب واضح.

- وكم يبلغ مقياس جلاسكو؟

"هـو مقيـاس للأعصـاب يهـدف إلـى إعطـاء وسـيلة موثـوق بهـا، وموضوعية لتسجيل الحالة الواعية لشخص ما"

- هل أنتِ طبيبة؟

- سلمى الحلواني مديرة التسويق بأحد المستشفيات الخاصة ولدي خبرة ببعض أمور الطب.

- ليس أكثر من خمسة على أقصى تقدير.

- فداك شراييني يا يوسف.

نظر لها منصور ببلاهة مخاطبا نفسه: إذن هذا هو الحب الذي يقولون عنه أن تنتفض في هيام عندما تتذكر المحبوب فيمتلك كل حواسك فيبكي القلب لألمه وينتعش لفرحه، فيعيش المحب على أمل سماع صوت محبوبه، بل وقد تأتيه هدية القدر فيلمح طيف محبوبه فيقض مضجعه فيجلس في الشرفة طوال الليل ينظر للسماء متخيلا تجمّع النجوم المتلألئة لترسم خصلات الشعر الفضي على وجه محبوبته التي بدت وكأنها تبتسم إليه في دلال، لعلي سأعيشها يوما وإن كنت أرجو ألا أكون حينها مصاب بتصلب الشرايين فيذهب الحب بقلبي لمشرحة المستشفى بدلا من المأذون وإن كان الأمر لن تختلف نهايته كثيرا.

- يبدو أنك تحبين كمال عبد الرحمن، عفوا يوسف المصري.

مسحت دموعها بيديها الرقيقتين مكملة حديثها:

- كيف لا أحبه وقد أعطاني من الحب أنهارا؟ وجدت فيه القلب الدافئ الذي يحتويك وقت حزنك ويفيض عليك من حنانه وقت ألمك لا ينتظر شكرا، في البلاء تجده العكاز الوحيد، يحميك بقلبه من أي خطر وإن كلفه حياتك، كيف لا أحبه وما قابلني إلا مبتسما رغم ما به من آلام؟ ولكن لا تأتي رياح الحياة بما تشتهي سفن المحبين.

- عذرا سيدتي يبدو أني قد ذكرتك بما يؤلمك.

- لا عليك يا دكتور فأنا لا أنساه أبدا.

- وهل لي أن أعلم حكايته؟

- لا أريد أن أزعجك فحكايته بها من الآلام ما الله بها عليم.

- هذا إن اعتبرنا أنه كان يعيش في رغد فيما سبق.

- ماذا؟؟

- لا عليكِ فقط أسمعيني ماذا حدث ليوسف المصري.

وبدأت سلمى الحلواني تحكي عمّا حدث ليوسف في الوقت الذي فتح منصور فمه في ذهول من هول ما سمع فيبدو أن ما لاقاه يوسف لم يكن سهلا، لم يكن سهلا على الإطلاق.

(٧)

- يوسف المصري بكالوريوس تجارة وإدارة أعمال ومعي ماجستير في إدارة الأعمال وإدارة المستشفيات.

نطقها ذلك الشاب الوسيم بثقة أثناء استلام مهام عمله الجديد في إحدى المستشفيات الخاصة وهو يخاطب مديرة التسويق بالمستشفى سلمى الحلواني، والتي نظرت إلى سيرته الذاتية باهتمام شديد.

- لديك سيرة ذاتية قوية ولكنّها ورقية.

- التجربة خير وسيلة.

- لا بأس ستتسلم مهام عملك من اليوم ولكن يبقى لدي سؤال مهم..

لم تنتظر سلمى الحلواني رد فعل يوسف المصري فأكملت حديثها بحدة مبالغ فيها:

- لماذا اخترت العمل بالمستشفيات بالتحديد رغم أن سيرتك الذاتية ستتيح لك العمل بأكبر الشركات والبنوك؟؟

ابتسم يوسف المصري في هدوء وثقة قائلا:

- توقعت السؤال، العمل بالمستشفى له أبعاد كثيرة لا توجد في البنوك والشركات.

ثم أكمل حديثه الذي بدا فيه حسن تنظيم أفكاره بل وثقته في عرض وجهة نظره التي تدل على حسن تلقيه دورات مهارات التواصل، قائلا:

- قد يتأثر السوق بتغيرات الاقتصاد لكن تبقى هناك أساسيات لا تتأثر نسبيا ألا وهي الطعام والدواء لذا لا زالت تجارة الأدوية حول العالم تحتل مرتبة متقدمة بعد تجارة السلاح، كما أن هناك بعدا آخر يهمني بصورة شخصية ألا وهي رؤية النفس البشرية على حقيقتها، حيث تلك المشاعر المتناقضة التي أراها فلا شيء يكسر الإنسان مهما كان جبروته قدر المرض ناهيك عن تلك الفرحة الفطرية التي أراها على وجه المريض حين ينعم بالشفاء.

ردت سلمى الحلواني وهي تحاول إخفاء إعجابها بكلماته:

- هذا جيد ولكن تذكر أننا هنا لسنا مستوصفا خيريا بل مستشفى خاصا يسعى أولا وأخيرا للمكسب الوفير وبالطبع لا مانع من بعض الخير فتذكر دائما أن سامية لا تعمل هنا ولن تعطيك راتبك الوفير فأنت هنا كي تجلب المال للمكان وبالتالي سيفيض عليك.

- أعلم هذا جيدا ولكن المرض لا يفرق يا سيدتي بين فقير وغني فلكلٍ منهم أمراضه فيستويان أمام الطبيب فقرحة المعدة كما تأتي للفقير من الزيت المحروق والمسكنات الرخيصة تأتي للغني من سيجاره الكوبي الباهظ الثمن.

- فلنكن عمليين اجلس واقترح لي خطة ننعش بها تسويق المستشفى.

- الخطة جاهزة وها هي يا سيدتي.

ابتسمت سلمى الحلواني مشجعة إياه:

- هل أنت جاهز هكذا باستمرار؟

رد يوسف المصري مبتسما:

- نعم يا سيدتي فشهاداتي الورقية علمتني ذلك..

وأخذ يشرح خطته مسترسلا بثقة وهدوء في الوقت الذي التمعت فيه عينا سلمى الحلواني إعجابا بخطته التسويقية وتيقنت في قرارة نفسها أن يوسف المصري ليس هاويا بل محترف تسويق ولكنّه للأسف لا يعيبه إلا شيء واحد، أنه إنسان.

مرت الأيام وبدأت تتضح خبرات يوسف المصري في مجال التسويق وبالفعل عينته سلمى الحلواني مسئولا عن حملة التسويق الجديدة للمستشفى وسط غضب زملائه بالمكتب كونه حديث التعيين وعندما صارحوا سلمى الحلواني بهذا ردت بكل برود:

- لقد عينته مسئولا لأنه بالفعل محترف تسويق وليس من التنابلة الذين يجلسون على المكتب لفترات طويلة يلعبون على هواتفهم ويتبادلون النكات البذيئة فيما بينهم منتظرين الوقوف أمام ماكينة الصرف الآلي لصرف رواتبهم لشراء السجائر وتحديث هواتفهم ومن يعترض فيكم فليغلق الباب من الخارج قبل تسليمه الاستقالة لدى الموارد البشرية بالدور الثاني.

بدأت الحملة تأتي بثمار مبهرة حيث بدأت عجلة العمل بالمستشفى تعود لسابق عهدها بعد أن كانت المستشفى خاوية على عروشها بعد انتشار سمعتها السيئة بعد تكرار حوادث الإهمال الطبي والعدوى رغم أسعارها المرتفعة.

- لكن تبقى هناك بعض المشاكل التي يجب حلها كي تستمر النتائج المبهرة يا سيدتي فما فعلناه هو مجرد انتفاضة وهمية أعادت للمستشفى بريقا زائفا.

نطقها يوسف المصري وقد بدا مهموما مخاطبا سلمى الحلواني.

ردت سلمى باهتمام:

- بريقا زائفا؟ يبدو أنك لم ترَ أرباح المستشفى في الشهر الأخير بعد ما نجحت خطتك التسويقية.

- كل ما فعلناه أننا أعدنا تسليط الضوء على المستشفى ببعض الإبهار في الشكل الخارجي مع بعض التعاقدات مع بعض شركات التأمين بالضبط كما يفعل أصحاب محلات الطعام، حيث يبدأ بافتتاح ضخم ويصاحبه سمّاعات ضخمة ومزعجة تذيع بعض الأغاني الهابطة التي يتمايل عليها المتسعكون في الشارع وما يلبث أن يمر الأسبوع فيكتشف الناس أنه محل كسابقه لا يصنع سوى رديء الطعام وما إن تمر الأيام وتتراكم الخسائر ويغلق المحل أبوابه فنكتشف أنه لم يربح في هذه المنظومة سوى مقاولي التطشيبات ومالكي السمّاعات المزعجة.

ردت سلمى وقد ظهر عجزها عن مجاراته بالتفكير:

- يبدو أن سيرتك الذاتية لم تكن ورقية فقط، أريد توضيح أكتر.

ابتسم يوسف المصري في خجل مكملا حديثه:

- يجب أن يكون هناك إصلاح شامل لمنظومة المستشفى لا يجب أن نترك شيئا للظروف ولكن..

- ولكن ماذا؟

- سيكلف ذلك أموالا ونحتاج معه لبعض الصلاحيات التنفيذية.

- فلنكن عمليين.. تعالَ معي سنذهب للدكتور منتصر الشبراوي مدير المستشفى ولنعرض عليه الخطة كاملة.

- وهل سيتقبل المدير أن يتحدث معي فيما أريده؟

- بل سيتحدث مع الشيطان نفسه إن كان بالأمر ربح للمستشفى، واطمئن هو يعرفك جيدا ويكفيك أن تعرف أن المكافأة الأخيرة التي مُنحت لك كان بتوجيهه هو شخصيا.

قال يوسف مغمغما:

- مع الشيطان نفسه! يبدو أن "سامية" لن يكون لها حياة هنا.

لم يستغرق الأمر سوى دقائق حتى كانت سلمى الحلواني ويوسف المصري يجلسان في ذلك المكتب الفخم الذي تزيّن بالكثير من الشهادات الطبية التي توحي بأن صاحب المكتب قد تتلمذ في الطب على يد

"أبوقراط" شخصيا ناهيك عن المبالغة الواضحة في الفخامة في الأثاث والكفيلة بعلاج العشرات من المرضى مجانا.

- لا تنبهر بفخامة المكتب يا يوسف فالظاهر هو ما يخطف الأبصار فالأهم من العمل هو ظبط العمل كما قالها الريحاني منذ قرن.

نطقها الدكتور منتصر الشبراوي وهو يشعل سيجاره الكوبي الضخم في تلذذ وكبرياء ناظرا للدخان المتراقص أمامه كإمرأة لعوب تتمايل على راغبيها.

- لهذا أنا هنا يا دكتور منتصر.

- يعجبني حماسك وحسن تخطيطك لتسويق المستشفى، فقد تمكنت من تغيير سيارتي للموديل الأحدث واستمرارك على هذا الحماس سيجعلني أغيرها مرة أخرى.

ابتسم يوسف المصري ابتسامة مجاملة مصطنعة ليكمل حديثه:

- ولكن هناك بعض الأمور تحتاج لإصلاحها كي تستطيع أن تشتري سيادتك سيارتك الجديدة.

- أصلح كما شئت ومكافآتك ستصلك كما أمرنا يا أستاذة سلمى.

- بالطبع يا دكتور فأوامرك تُنفّذ حرفيا.

- ولكني سأواجه عقبات كثيرة وأحتاج ل...

قاطعه منتصر الشبراوي قائلا:

- لا أريد سماع تلك العقبات طالما تعرفها أنت ومديرتك فأصلح كما شئت ومن يعترض على إصلاحك فقط أبلغ مديرتك كي نوجه له خطاب شكر كي يجلس في منزله، أعتقد أن مقابلتكما انتهت وسأنتظر نجاحكما فقد راهنت مديرتك عليك وأرجو ألا تخسرا الرهان فراتب مديرتك ستتعب كثيرا كي تجده في مكان آخر.

ابتسمت سلمى الحلواني في توجس قائلة:

- أعدك سنكون عند حسن ظنّك يا دكتور.

خرج الاثنان سريعا عائدين لمكتب سلمى الحلواني وبادرها يوسف المصري بسؤاله مستنكرا:

- هل طبيعي أن يقابلنا د. منتصر الشبراوي بكل هذا الكبرياء ونحن نسعى لمصلحته؟

- بالطبع لا فمقابلته إياك دون موعد هو قمة التواضع، إنك لا تتحدث مع طبيب عادي، دقيقته بمقابل، لا تظن أنه لا يزال يبحث عن الخمسة "ع" التي يحلم بها شباب الأطباء فقد تجاوز ذلك منذ زمن طويل، فقد أصبح طبيب أعمال يرابح في البورصة ويعمل بالمقاولات ويتاجر بالذهب.

- ولماذا لا يزال يدير المستشفى؟؟

- لأنها هي الأصل والواجهة والتي يدير من خلالها كل ثرواته كما أنه يثق بالمحيطين به من المستشفى بعد أن كبروا معا ووجد أنهم لا يسرقونه إلا قليلا فما يضره إن ألقى لهم الفتات أمام توسع مشاريعه وثرواته.

- يبدو أن سيرتي الذاتية ورقية بالفعل ولكن لا بأس سأتعلم.

- الآن لديك أغلب الصلاحيات بالتمويل الذي تريده، ماذا تريدأن تفعل؟

- لقد بنيت خطتي على عاملين مهمين: الأول هو استمرار رسم الصورة الجيدة للمستشفى في الدعاية، والثاني هو التطبيق الفعلي لذلك كي لا تستمر مجرد صورة بالتأكيد على جودة المستشفى، لا أقصد مجرد الجدران بالطبع ولكن أنظر لأهم عامل في منظومة المستشفى.

- وما هو؟؟

- ببساطة هو العامل البشري فالمريض لن يتلقى علاجه من الجدران النظيفة أو من الصور باهظة الثمن المعلقة عليها، لن تجدي يوما مريضا يوجه الشكر لنا على الفيسبوك لأنه معجب بتكييف المستشفى.

- وما خطتك؟

- يجب أن نجلس مع كل فرد من العاملين بالمستشفى لنُشعره بأهمية دوره فالعامل الذي يرفع الأوراق الملقاة على الأرض له دور كالطبيب الذي يعالج مرضاه، موظف الاستقبال له دور في الرد ببشاشة على اتصالات المرضى، لهم دور كالممرض الذي يعتني بالمريض حتى يُشفى.

- ولكنك لن تستطيع فعل ذلك وحدك.

- بالطبع لن أستطيع فهذا دور الفريق كله، فلنجلس معا ونوزع الأعمال فيما بيننا.

- لكن هناك نقطة مهمة سيتم تكليفك بها ألا وهي التعامل مع مقدمي الخدمة الطبية من أطباء وتمريض فهم حجر الزاوية في منظومة المستشفى وأنت ستستطيع بلباقتك النقاش معهم.

- لا بأس وسأبدأ من الآن.

دخل يوسف المصري سريعا نحو غرفة مسئولة التمريض بالمستشفى مدام شوقية والتي جاءت للمستشفى فور تخرجها من كلية التمريض لذا فهي أقدم من بعض جدران المستشفى.

- صباح الخير، يوسف المصري من قسم التسويق.

قالها يوسف في ابتسامة هادئة.

ردت مدام شوقية بلا مبالاة وهي منشغلة في تنظيم أحد ملفات المرضى:

- ماذا تريد؟

ابتلع يوسف المصري لعابه محافظا على هدوئه:

- أنا هنا من أجل منظومة التسويق الجديدة.

هنا قاطعته مدام شوقية ببرود:

- لا بأس سنحافظ على هدوء المستشفى ونعطي المريض دواءه بانتظام ونحن نبتسم سأجبر التمريض على الاستحمام مرتين يوميا بل

وسأجعلهم يحرسون المستشفى إن أردتم ذلك، وإلخ إلخ إلخ، هل تريد شيئا آخر؟

ابتسم يوسف المصري في هدوء قائلا بحزم:

- إذن هناك مشكلة وأنا هنا لحلها.

ردت مدام شوقية بحدة:

- لقد سمعت الكثير والكثير ممن سبقوك قالوا هذه الكلمة ولم أرهم يفعلون شيئا سوى التوقيع في الدفاتر بتحقيق الأعمال المنوطة بهم دون إصلاح حقيقي.

- الأمر سيكون مختلف معي.

- كيف سيختلف؟؟ هل ستتغير نظرة المجتمع للممرض بكونه مهمل دائما ولا يسعى إلا للبقشيش من أهل المريض؟؟ هل ستجعل من الطبيب يجلس في عنبر المرضى بدلا من تركه للممرض وحيدا؟؟ بالطبع كلا لن يحدث وسيكون الممرض هو المسئول عن أي كارثة تحدث بالمستشفى حتى لو كان انفجار ماسورة المجاري وبالطبع سيف الخصومات لن يرحم.

- أتفق كثيرا مع رأيك ولكنّي أعدك أن الأمر سيختلف لكن بشرط واحد.

- وما هو؟

- أن أرى الوجه الحقيقي للممرض، هم ملائكة الرحمة بحق فلا أحد يحتك بالمريض المستسلم مثله فإن لم يكن له قلبا حانيا فمن سيكون له قلب؟

- نحن لا نقصر في عملنا قدر الإمكان ولكني أعدك أن يتحسّن عملهم إذا ما رأينا جديدا في تقديرهم.

- وها أنا أفي بوعدي سأستصدر لكم قرارا اليوم بزيادة بدلات التمريض ليس هذا فحسب بل سيحصل كل ممرض على نسبة من تمريضه لكل مريض يتم حجزه بالمستشفى وسيتم عمل مكافأة خاصة للممرض المميز وسيتم تطبيق المكافأة شهريا.

ردت مدام شوقية بحذر:

- أفلح إن صدق.

- ستكون تلك القرارات على مكتبك بعد قليل ثم أكمل بحزم:

- ولكنّي في المقابل لا أريد أترك شيئا للظروف فإن رأيت تقصيرا من أي ممرض سيكون حسابي معه عسيرا فلن أكتفي برفده من المستشفى بل سأوقفه من ممارسة المهنة.

خرج يوسف المصري سريعا من غرفة رئيسة التمريض متوجها نحو غرفة سلمى الحلواني ليبلغها بالتطورات والتي بدورها تحمست جدا لما قاله يوسف وهي تحاول أن تخفي نظرات إعجابها بذلك الشاب المتوقد بعد أن خفق قلبها بعنف لتخاطب نفسها: لا وقت للخفقان يا قلبي، لا تقل لي أنك أحببته، لا تفتح جرحا قد اندمل منذ زمن فلا وقت لدي لذلك فأنا كما يقولون "strong independent woman" فالحب ضعف فلتصمد فتجربة فقد الحبيب الأول ليست عني ببعيد.

سرعان ما استعادت سلمى الحلواني تركيزها مشجعة ليوسف المصري على تفكيره وبالفعل ما هي إلا لحظات قليلة حتى استطاعت سلمى الحلواني استصدار القرارات التي اتفق عليها يوسف المصري مع رئيسة التمريض ليبتسم يوسف في حماس قائلا:

- من حقي أن أفتخر أن مديرتي هي سلمى الحلواني.

هنا لم تستطع سلمى الحلواني أن تخفي حمرة الخجل من وجنتيها جراء مديح يوسف لها وخفق قلبها بعنف فقد علمت أنها للأسف قد غرقت في حبه، غرقت حتى الثُمالة.

عاد يوسف المصري سريعا لغرفة رئيسة التمريض التي نظرت له نظرة مشوبة بلمحة من السخرية قائلة:

- كما هي العادة لا جديد، لا بأس ستبقى صورتنا كما هي.

ابتسم يوسف المصري في ثقة قائلا:

- بل ستتغير، لقد وفيت بوعدي وسأنتظر أن تفي أنت بوعدك ووضع قرارات الإدارة على مكتبها وتركها وانصرف.

لم تصدق مدام شوقية ما يقوله يوسف حتى طالعت الأوراق بنفسها وقرأتها أكثر من مرة حتى تتأكد من صحتها لتجد نفسها أمام تغيير حقيقي في سياسات الإدارة فرعت سماعة الهاتف بحماس قائلة:

- يا مصطفى أريد اجتماعا عاجلا مع كل طاقم التمريض بالمستشفى ومساعديهم بدون استثناء، أكرر بدون استثناء.

- ما الخطوة التالية يا يوسف؟

قالتها سلمى الحلواني في حماس.

- تبقى لدي الأمر الأصعب، التعامل مع التمريض أمر ليس صعبا فلهم توصيف توظيفي ثابت يمكن أن تتعامل معه في الإطار المرسوم لكن يبقى التعامل مع الطبيب أمر مختلف.

- هل أنت خائف؟

- بالطبع لا ولكني فقط أريد ترتيب أفكاري حتى أصل من المقابلة لما أريده.

- ولكن من الصعب أن تقابل د. منتصر الشبراوي ثانية.

- مقابلته لن تفيدني بشيء سأقابل د. إبراهيم البحيري المدير الفعلي للمستشفى فالدكتور منتصر لم يعد يعلم شيئا عن المستشفى سوى رقم حسابها في البنك.

قالت سلمى وهي تحاول أن تخفي قلقها على يوسف:

- ولكنّ الدكتور إبراهيم ليس بالشخص الهيّن.

- بالعكس سنتفق كثيرا فهو شخص عملي وهذا ما أريده لا أريد التابوهات الروتينية المعقدة فهذا الرجل يعرف جيدا أن أقصر الطرق بين نقطتين هو الطريق المستقيم.

- لا أعلم ماذا أقول ولكن كن حذرا.

ابتسم يوسف المصري وتوجه نحو مكتب د. إبراهيم البحيري وقبل أن يخرج من الباب التفت لسلمى الحلواني قائلا:

- لا تقلقي فإن حدث شيء فسأقول له إن لدي مديرة ستأكل من يضرني بأسنانها.

تلعثمت سلمى الحلواني وبدا الارتباك واضحا عليها قائلة:

- نعم نعم بالطبع فلتذهب الآن كي تلحق بموعدك معه.

وما إن خرج يوسف من الغرفة حتى تراجعت سلمى الحلواني للوراء حيث كاد قلبها ينخلع من مكانه فضمت يديها بقوة على قلبها لعله يستكين ولكن لم تزده الضمّة إلا انقباضا، يبدو أن الحب قد تغلب على خوف تكرار التجربة التي عاشتها منذ خمس سنوات بعد أن اختلفت مع حبيبها وتركته لتتخذ قرارها بحبس القلب داخل الضلوع فألم الوحدة مهما عظم فلن يصل لألم الفراق ولكن للأسف هرب القلب من محبسه وصار طليقا ليتنفس عبير الحب بشوق ولهفة ولسان حالها: كيف للسجين أن يعود لمحبسه بعد أن ذاق طعم الحرية مجددا؟؟

- يوسف المصري من فريق التسويق بالمستشفى.

قالها يوسف المصري بثقة وهو يقف أمام د. إبراهيم البحيري والذي بدوره ابتسم مجاملا له مشيرا إليه بالجلوس.

- جميل تواضعك أن تعتبر نفسك من فريق التسويق في الوقت الذي تعتبر مسئولا عن الخطة الجديدة.

- الخطة لن تكتمل بي وحدي بل بالفريق و..

قاطعه د. إبراهيم البحيري قائلا:

- روح الفريق والتكامل إلخ إلخ عفوا اسمي هو إبراهيم البحيري وليس إبراهيم الفقي، لا وقت لدي لسماع مزيد من الشعارات الجوفاء فلنكن عمليين، لقد طلبت مقابلتي فماذا تريد؟

- الأطباء هم الركن الأساسي لخطة التسويق ولا أخفيك سرا أن السبب الرئيسي لانتكاسة المستشفى الفترة السابقة هي النظرة السلبية للأطباء تجاه المرضى فقد كثرت أخطاؤهم وزاد جشعهم على المرضى.

- لسنا جمعية خيرية فالأمر عرض وطلب من يريد العلاج فليدفع ومن لا يريد فليذهب حيث شاء، ولا داعي أن تذكرني بكونها مهنة سامية فسامية لن تدفع مصاريف مدارس أولادي ذات الورق الأخضر.

- أعرف ذلك جيدا ولكن على الأقل التنوع في كتابة الأدوية.

- الأدوية خط أحمر يا عزيزي فكيف أترك كتابة دواء للشركة التي ستجعلني أسافر لأوروبا لحضور المؤتمرات ناهيك عن الهدايا والعشاء الفاخر في أفخم الفنادق.

- ومصلحة المريض؟

- كما قلت لك من يريد العلاج فليدفع وإن كانت هناك نقطة مهمة فتلك الشركات الكبيرة تخاف على سمعتها فلا تستورد المواد الخام الرديئة.

- وهناك أمر آخر، عندما يدخل المريض للمستشفى يتم عمل تحاليل وأشعات كثيرة يدفع المريض من خلالها أموالا كثيرة في الوقت الذي لا تحتاج حالته هذا.

- قد جهزنا المعمل ومركز الأشعة بأحدث الأجهزة باهظة الثمن وبالطبع لا نريد أن نجعلها تصدأ.

- ولكن المريض لا يحتاج لكل ذلك.

- لا يهم ولكننا نحتاج لذلك.

- كأنك تنتقم من المريض.

- لعله يتعلم أن الطبيب إنسان له متطلبات بدلا من استغلاله، هل رأيت يوما الميكانيكي الذي يصلح لك سيارتك يصلحها لك مجانا؟؟ هل رأيت يوما المعلم الذي يعطي أولادك دروسا خصوصية يتبرع بشرحه مجانا بحجة أن مهنته أيضا سامية؟ ولكن الطبيب لا بواكي له فهو مطالب ألا يأخذ من المريض مالا نظير الكشف عليه وعلى أولاده وعلى جيرانه وإن تجرأ الطبيب وطلب مقابلا لتلك الاستشارات فالويل كل الويل له بل وسيكون محظوظا إن توقف الأمر عند السباب بالأب والأم ولم يتطور إلى عاهة مستديمة تذكره دائما بالمهنة السامية.

- هل أعتبر هذا ردا نهائيا؟

رد د. إبراهيم البحيري ببرود مشعلا سيجاره الكوبي الفخم:

- سعدت بلقائك وتذكر أن راتبك الضخم لن يستمر طويلا إذا انخفضت مكاسب المستشفى.

انصرف يوسف المصري من الغرفة وقد تعقدت المسألة أمامه فكيف سيستطيع تغيير الصورة السيئة عن المستشفى دون تجاوب الفئة الأهم، مغمغما:

- فليذهب راتبكم للجحيم فلن أتراجع عمّا أريده.

وتوجه للركن الصغير المصمم للتسويق على السوشيال ميديا وأغلق الباب خلفه ليجد طارق العقيلي المسئول عن صفحة المستشفى على الفيسبوك يجلس بلا مبالاة أمام شاشة الكمبيوتر ليتابع تعليقات المتابعين في ملل وسرعان ما اعتدل في مكانه عندما دخل عليه يوسف المصري الذي أشار له بهدوء ألا يقف ليخاطبه بثقة:

- لدينا عمل شاق يا طارق أريدك أن تستخدم كل خلايا عقلك لما سأقوله فللأسف أنت تستصغر عملك رغم أنه من أهم منصات التسويق فالفيسبوك في يد الجميع وإن أحسنت تسويق الصفحة بمحتويات شيقة ستجلب لك الكثير من المتابعين وبالتالي يستتبعها زيادة في راتبك.

- كلي آذان صاغية يا أستاذ يوسف.

وبدأ يوسف يحكي فكرته بحماس شديد في الوقت الذي ارتجف فيه قلب الشاب طارق العقيلي بعنف مما يقوله يوسف فقد كان الأمر خطيرا، خطيرا بحق.

نظرت سلمى الحلواني لنفسها في المرآة وهي تعدّل من هندامها ونظارتها الطبية الجديدة مذكرة نفسها بآخر مرة نظرت لنفسها في المرآة كيف كانت وكيف أصبحت، فلقد نسيت وسط دوامة العمل التي أنها أنثى فهي لم تتناسَ هذا فحسب بل هي من ألقت بنفسها في تلك

الدوامة كي تنسى ما ألم بها من فقد حبيبها وابتسمت بتلقائية أمام المرآة وهي تتمايل كمراهقة تنتظر بلهفة لقاء حبيبها ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي سفن العاشقين حيث قطع صوت رنين هاتفها المزعج لحظاتها السعيدة لتجد رقم الشخص الذي تخشاه دائما إنه رقم الدكتور إبراهيم البحيري.

- دكتور إبراهيم أهلا بحضرتك يا فندم.

- منتظرك في مكتب د. منتصر الشبراوي سريعا وكل دقيقة تتأخرين فيها قد يكلفك وظيفتك.

وأغلق السماعة بصفاقة. بقيت سلمى صامتة لدقيقتين وهي تحاول أن تستعيد رباطة جأشها لتعدل من هندامها سريعا متجهة نحو مكتب الدكتور الشبراوي فيبدو أن الأمر خطير.. خطير جدا.

- هل تظن أن الأمر سيمر بخير يا يوسف؟؟

نطقها طارق العقيلي في خوف بعد ما سمع خطة يوسف المصري وبدأ في تنفيذها فعليا.

- لا تقلق فأنا المسئول عن الحملة ولدي صلاحيات من د. منتصر الشبراوي شخصيا وإن تحدث أحد فسيخاطبني ولن يخاطبك.

- ولكن ما أقدمنا عليه لن يمر مرور الكرام.

أسند يوسف المصري ظهره للمقعد في استرخاء وهو يحتسي كوبا من عصير الليمون وقال:

- بل سيمر وسترى فالخير سيحمي أصحابه.

وقفت سلمى الحلواني لثوانٍ أمام غرفة د. منتصر الشبراوي لتأخذ نفسا عميقا يساعدها على الهدوء والاسترخاء قبل مواجهة طوفان الغضب المتوقع من د. إبراهيم البحيري ويزيد الطين بلة لديها أنها لا تعرف كنه الموضوع كي تجهز الردود كما اعتادت في أي نقاش، وطرقت الباب وسمعت صوت د. منتصر يدعوها للدخول لتجد أن المكتب ليس به إلا د. منتصر ود. إبراهيم، حيث أطلق الأخير نظرات الغضب تجاه سلمى وهو يحاول أن يخرج كل غضبه في أنفاس سيجارته الفاخرة.

- ما الذي تفعلينه يا أستاذة؟؟ هل أصبحنا وقفا خيريا أو دارا للأيتام؟

نطقها د. إبراهيم البحيري بغضب شديد.

- عفوا يا دكتور أنا لا أعرف عمّا تتحدث.

- تلك المصيبة أعظم.

- صدقا يا دكتور أنا لا أعلم ما المشكلة.

- ألم تلاحظي صفحة المستشفى على الفيسبوك؟

- أتابعها على فترات فلم نحدد لها خطة خاصة بها حتى الآن لذا فالصفحة ليست مفعلة بالشكل الكافي وليس لها مردود تسويقي.

- متى كانت آخر مرة تابعتيها؟

- منذ أسبوع تقريبا.

- افتحي هاتفك الآن وانظري ماذا بها.

فتحت سلمى الحلواني هاتفها سريعا وسرعان ما انقبض قلبها في عنف فما رأته على صفحة المستشفى لم يكن متوقعا، لم يكن متوقعا على الإطلاق.

ألقى يوسف المصري جسده المنهك على مقعده الوثير مخاطبا نفسه: الآن أنتم أمام الأمر الواقع أيها الأطباء، لن يلبث أن ينتشر الخبر على الفيسبوك أن المستشفى ستفتتح قسما بأسعار مخفضة للفقراء، قد أبدو كروبين هود ولكنّها السبيل الوحيد لكي يحصل الفقراء على فرصة للعلاج وفي الوقت ذاته لن تُضار المستشفى كثيرا بل على العكس ستزيد من شعبية المستشفى بكونها نصيرا للفقراء في ظل الظروف

الصعبة لتستطيع أن تمحو الصورة السيئة التي كانت عليها، الآن ما علينا إلا انتظار رنين الهاتف إما بالرفد من المستشفى أو خصم الراتب لمدة سبعة أشهر إذا كنت محظوظا.

جاهدت سلمى الحلواني أن تخفي إعجابها بجنون يوسف المصري الذي فاق كل تصوراتها بل وسرحت بخيالها بعيدا في مستقبلها الحالم مع ذلك المتهور الذي سيغير مفهوم الحبيب الذي يخطف محبوبته على حصان طائر فقد يخطفها مثلا في صاروخ يذهب بعيدا على ضفاف المريخ أو آلة زمن يعود بها لمجاورة كليوباترا على عرشها.

- ما رأيك يا أستاذة سلمى في ما حدث؟

انتفضت سلمى الحلواني من حلمها السعيد عندما سمعت تلك الكلمات من د. منتصر الشبراوي والذي بدا هادئا على غير المتوقع.

ردت سلمى الحلواني وهي لا زالت تفكر في الطريقة المجنونة التي سيخطفها بها:

- عفوا يا دكتور ولكنني محتاجة أن أراجع يوسف المصري لأرى ماذا حدث.

- لا بأس لديك نصف ساعة لأجد تفسيرا لما حدث، فقط نصف ساعة لا أريد أن أذكرك بذلك مرة أخرى.

- بالطبع يا فندم، أستأذنك للذهاب.

وخرجت سريعا من المكتب وهي لا تدري ماذا ستفعل في تلك المعضلة آملة أن تجد الحل عند يوسف المصري فهو من بدأ المشكلة وهو من بيديه حلها.

خرجت سلمى الحلواني من المكتب تاركة د. إبراهيم البحيري وهو يستشيط غضبا والذي زاد غضبه البرود الذي واجه به د. منتصر الشبراوي الموقف الذي حدث فحدثه قائلا:

- ماذا سنفعل في تلك المصيبة؟

رد د. منتصر الشبراوي في برود:

- ومن قال إنها مصيبة؟

- وماذا تسميها؟؟ كيف سنتعامل مع الأعداد المتوقع مجيئها للمستشفى بالسعر المخفض؟ من سيتحمل فرق التكاليف؟؟ لن يرضى الأطباء ولا باقي العاملين أن تقل مكاسبهم بهذا الشكل.

قال د. منتصر الشبراوي وهو ينفث دخان سيجاره في استمتاع:

- ومن قال إننا سنخسر؟؟

- حقيقة أنا لا أفهم شيئا.

- استرخِ واشرب هذا العصير واسمع ما سأقوله لك فالأمر سيكون مربحا، مربحا إلى حد كبير..

وبدأ يحكي ما يريد في الوقت الذي التمعت عينا د. إبراهيم البحيري في إعجاب كبير وهو غير قادر على الحديث فما يقوله د. منتصر الشبراوي لم يكن هينا، لم يكن هينا على الإطلاق.

- يا لك من مجنون!

قالتها سلمى الحلواني في حماس شديد رغم معرفتها بعواقب الأمر مخاطبة يوسف المصري الذي اندهش من رد فعلها فرد مبتسما:

- توقعت أن تصبي اللعنات على رأسي قبل أن تقطعيه وتقومي بوضعه على باب قسم التسويق كي أكون عبرة لكن من تسول له نفسه الإتيان بتلك الأفكار المجنونة.

ضحكت سلمى الحلواني بصوت عالٍ قائلة:

- لا تتعجل فلن يكفيني ذلك ولكن أولا أريد أن أعرف لماذا فعلت هذا قبل أن يتم تعليق رأسينا على باب الشركة.

رد يوسف ضاحكا:

- لا بأس طالما سنكون معا سأكون سعيدا فأنا أخاف أن يُعلق رأسي وحيدا.

غمغمت:

- وأنا يكفيني القرب منك.

- ماذا تقولين؟

- لا عليك فقط قل لي لماذا فعلت هذا.

قال بهدوء:

- كي لا أضيع مجهودنا سدى فكل ما نفعله دون تغيير الصورة الذهنية عن المستشفى سيذهب أدراج الرياح وأنا لن أقبل بالفشل وشهاداتي الورقية تثبت ذلك.

- والعواقب؟

قال بحزم:

- أعرفها جيدا فلست باكيا على عمل فشلت فيه.

- وأنا كمديرة للتسويق سأكون في جوارك ولن أترك فريقي يواجه المشاكل وحيدا.

- قد تفقدين وظيفتك.

- يكفيني ألا أفقدك، عفوا يكفيني ألا أفقدكم..

وعدّلت نظارتها الطبية في ارتباك وتوجهت لمكتب د. منتصر الشبراوي لتقف لحظات أمام الباب لتستعيد هدوءها انتظارا للعاصفة التي تنتظرها وطرقت الباب ليسمح لها د. منتصر الشبراوي بالدخول لتجد الأمر غريبا، غريبا بحق.

جلس طارق العقيلي مسئول صفحة المستشفى على الفيسبوك في اهتمام يتابع النشاط الواضح على الصفحة بعد الحملة الخيرية التي بدأها يوسف المصري فقد زاد الإقبال على الصفحة بصورة كبيرة بالإضافة إلى التعليقات المشجعة مما أعطاه الحماس الكافي لتجميل الصفحة بصورة أكثر فأحس أن الصفحة الآن هي عالمه الخاص فتحول من موظف

روتيني يأتي لعمله متكاسلا إلى شخص نشيط قد سيطرت الصفحة على جلّ تفكيره لدرجة أنه لم يشعر بيوسف المصري وهو يدخل عليه مكتبه ليتابع العمل بالصفحة.

- كيف حال سوبرمان التسويق اليوم؟

نطقها يوسف المصري بابتسامة مشجعة موجها حديثه لطارق العقيلي.

- سوبرمان!! حاشاك يا يوسف فأنا مجرد موظف صغير.

- من قال إنك موظف صغير؟؟ ألا ترى كيف صار الإقبال على الصفحة؟؟ لولا مجهودك الرائع لما وصلنا لذلك.

- ولكنها كانت فكرتك.

- ولكنك أنت الذي نفذت والتنفيذ الصحيح أكثر من نصف النجاح.

- أرجو أن أكون عند حسن ظنكم.

- ولكن هناك نقطة يا سوبرمان.

- وما هي؟

- الآن الأمر أصبح يحتاج للعمل بصورة احترافية سنجلس سويا فلقد حصلت على دورات في التعامل مع صفحات الفيسبوك وأنقل لك كل ما تعلمته.

- ولكن هذا كثير عليّ.

- نحن فريق واحد ولكن سيبقى أن تريني مهارتك فالأمر سيختلف كثيرا الفترة القادمة وأكمل يوسف مغمغا ومخاطبا نفسه في ابتسامة: هذا إن بقيت أصلا.

دخلت سلمى الحلواني لغرفة د. منتصر الشبراوي وهي تشيح بوجهها عن د. إبراهيم البحيري اتقاء لغضبه موجهة حديثها للدكتور منتصر الشبراوي الذي أشار إليها في هدوء بعدم الحديث قائلا:

- لا داعي للشرح يا أستاذة سلمى فالأمر بسيط فقد كان الأمر فعلا في حاجة لأن نفعل الخير على الأقل كي يبارك الله لنا في أرزاقنا ولعل ما حدث هو إشارة لنا بأن نعود للطريق الصحيح.

ردت سلمى في حماس:

- وغير ذلك يا دكتور هذا سيساعدنا في تغيير الصورة السيئة عن المستشفى بكونها مستشفى استثماري لا هم لها سوى الأموال ثم الأموال دون النظر للمريض الفقير.

- بالفعل هي نقطة مهمة لذا قررت كمدير تنفيذي للمستشفى بعد الرجوع لأستاذنا د. منتصر الشبراوي صرف نصف شهر مكافأة لفريق التسويق على أفكاره المتجددة مع وعد بمزيد من المكافآت في حالة استمرارهم على هذا المنوال بل وليس هذا فحسب قررنا ترقية يوسف المصري ليكون نائبا لمديرة قسم التسويق.

صفقت سلمى الحلواني في فرح طفولي وقالت:

- قد أحسنت الاختيار يا د. إبراهيم فهو شاب متوقد الذكاء ولديه الحماسة والغيرة على عمله.

- أعتقد أن لديك عمل كثير يا أستاذة سلمى.

- بالفعل يا دكتور فلتأذن لي.

خرجت سلمى من غرفة د. منتصر وقد رقص قلبها فرحا ليس بمكافآت المدير بل لأنها ستقترب أكثر وأكثر من يوسف المصري نائبها حاليا

وحبيبها مستقبلا، وسرعان ما اتصلت بيوسف المصري طالبة منه جمع فريق التسويق في مكتبها لاجتماع عاجل.

ما إن خرجت سلمى الحلواني من مكتب د. منتصر الشبراوي حتى اعتدل الأخير في مكتبه في حزم موجها حديثه للدكتور إبراهيم:

- لا وقت لدينا يا د. إبراهيم فالفرصة لا تأتي إلا مرة واحدة فمتى ستبدأ في تجهيز ما اتفقنا عليه؟

- اعتبر أن الأمر قد بدأ من الآن يا دكتور.

وابتسم كلاهما في غموض نافثين دخان سجائرهما ليتراقص أمامهما كشيطان تلتمع أسنانه ويتجهز للانقضاض على فريسته.

ساد الصمت في مكتب التسويق بعد أن اجتمع الفريق بكامله في غرفة مديرة التسويق سلمى الحلواني والتي نظرت لوجوه الجميع وهي مقطبة الحاجبين ثم ما لبثت أن قالت:

- بالطبع تعرفون لماذا جمعتكم اليوم.

- بالطبع نعرف وأنا عن نفسي ها هي استقالتي.

- جيد أن تعترف بمسئوليتك ولهذا كان الاجتماع.

وانتظرت قليلا وهي تنظر لفريقها في هدوء وما لبثت أن صفقت بيديها في فرح طفولي لتكمل حديثها، لقد نالت الحملة استحسان الدكتور منتصر الشبراوي وأمر بمكافآت للفريق بالكامل بل وترقية يوسف المصري لمنصب نائب المدير.

هلل الفريق فرحا والتفوا حول يوسف المصري مهنئين والذي رد لهم التهنئة بدوره ولكن لم تكتمل فرحته فهناك شيء قد جال بصدره ليقول له إن الأمر ليس بهذه السهولة وهناك وراء الأمور أمور.

مرت الأيام سريعا وبدأت الحملة التسويقية تؤتي ثمارها بالفعل حيث بدأ الإقبال على المستشفى يتزايد بعد تغير الصورة الذهنية عن المستشفى وتوافد الكثير من الفقراء على القسم الذي أعلنت عنه المستشفى، بل وبدأت تأتي التبرعات من أهل الخير للمستشفى للمساعدة في تخفيف الآلام عن الفقراء في الوقت الذي انهالت عبارات الثناء على فريق التسويق بالمستشفى من قِبل العاملين بها.

جلس يوسف المصري في مكتبه في استرخاء وهو يتابع التفاعل الكبير على صفحة المستشفى على الفيسبوك مبتسما لما لاحظه من تطور كبير في منظومة عمل الصفحة بمجهودات طارق العقيلي، ذلك الشاب المتوقد الذي فقط كان يحتاج لدفعة معنوية لكي يبدع ويتألق، ولكن لا

يـزال هنـاك مـا يقلقـه فلـيس مـن الطبيعـي أن يسـتجيب د. منتصـر ود. إبراهيم بسهولة لتلك الصدمة التي فوجئوا بها، نعم الله يهدي من يشاء بكن فيكون ولكنّ هؤلاء لا يعترفون إلا بالمال الذي يأتي بالمال أما الدين لديهم يتلخص في السبحة التي لا تفارق أيديهم مع رحلات الحج السياحي المتكررة مع بعض الصدقات في رمضان، ولكن لا مجال أمامي سوى الانتظار وطالما تسير خطتي كما أريد فلا بأس فليفعلوا ما يشاؤون.

- الأمور تسير كما يرام يا د. منتصر.

قالها د. إبراهيم البحيري في حماس وهو يضع ملف حسابات المستشفى أمام د. منتصر الشبراوي.

- من الجيد أن ترتفع إيرادات المستشفى بهذا الشكل ولكنك تعلم أننا ننتظر المزيد فلدينا فرع جديد للمستشفى في التجمع الخامس نريد أن نشيده وأنت تعلم كم تبلغ التكلفة.

- أعلم طبعا يا دكتور فقط انتظر أن يبدأ العمل على ما اتفقنا عليه وعندها ستتغير الأمور، ستتغير تماما.

أطلق د. منتصر الشبراوي ضحكة عاليا أتبعها بسعال شديد ينبئ عن جبال من أدخنة السجائر يضيق بها صدره ليكمل قائلا:

- لقد أحببت فعل الخير جدا يا د. إبراهيم وإني لأتشوق انتظارا لمكاسبه ولا أريد أن أنتظر الكثير.

اجتمعت سلمى الحلواني بفريقها في مكتبها وبادرتهم بالحديث:

- حقيقة لا أعرف كيف أشكركم على مجهودكم الواضح منذ بدء الحملة التسويقية الأخيرة، والتي نجحت نجاحا باهرا، وبالطبع قد نالكم من الحب جانب فقد زادت رواتبكم ومكافآتكم وهذا بالمناسبة ليس تفضلا من المستشفى عليكم بل هي حقوقكم ونتاج تعبكم، ولكن هناك أمر هام الآن فالوصول للقمة سهل ولكن يبقى التحدي الأصعب هو الاستمرار عليها، لذا جمعتكم اليوم لوضع خطة تطوير الحملة التسويقية، سيقوم كل فرد في مكانه بتجهيز الخطة المناسبة له وسيتم تجميع أفكاركم مع يوسف المصري لاعتمادها.

وبدأ يوسف المصري بالفعل في متابعة أفكار التطوير للحملة التسويقية وجمعها في نقاط سريعة ليضعها على مكتب سلمى الحلواني قائلا:

- قد جمعت لحضرتك الأفكار التي اقترحها الزملاء لتطوير الحملة التسويقية.

ردت عليه سلمى الحلواني ببلاهة وعيناها لم تبارح عيني يوسف:

- أي زملاء وأي خطة؟؟

رد بتعجب:

- خطة التسويق يا فندم.

قالت سلمى الحلواني وقد استفاقت سريعا من مراهقتها:

- نعم نعم، خطة التسويق، وما رأيك؟

- توجد أفكار كثيرة جيدة ولكن رأيت أن أغلب الأفكار تتمحور حول كيفية الاستفادة من الحملة الخيرية لذا فسأتواجد الفترة القادمة في القسم الخيري وسط المرضى كي أحاول أن أجد الطريقة للاستفادة من الحملة.

- ما رأيك لو صورنا حوارات مع المرضى الذين يستفيدون من الحملة؟

- فكرة جيدة بالطبع، ولكننا هنا سنتاجر بآلام الفقراء فبالطبع لن يكون المريض سعيدا حين يظهر أمام جيرانه وأهله أنه يُعالج بسعر زهيد اعتمادا على تبرعات الغير لكنه -أي المريض- لن يعتذر بالطبع عن

إجراء أي حوار إما وفاء للمكان الذي عالجه أو خوفا من توقف العلاج إن رفض، لا شيء يذل المرء يا سيدتي كما المرض فما بالك لو اجتمع عليهم المرض والفقر.

صمتت سلمى الحلواني لثوانٍ وما لبثت أن ردت بصوت يكابد الدموع:

- أنت على حق لديك مطلق الحرية في اختيار الطريقة التي نسوّق بها الحملة الخيرية وبالمناسبة لقد تلقيت عروضا من وكلاء لاعبين وفنانين أعجبوا بالحملة الخيرية وأبدوا استعدادهم للمشاركة في التسويق وبنصف مقابل أجورهم في الإعلانات الخيرية المماثلة.

ابتسم يوسف المصري في سخرية:

- بنصف أجورهم؟ يا للخير المتدفق من قلوبهم! بالفعل موهوبون في إقناعك في عمل الخير الذي يظهرونه في مسلسلاتهم.

- أنت لا تعيش في المدينة الفاضلة.

- سأعيش بها يوما ما.

- خذني معك حينها.

- أعدك هذا حينما أجدها، سأذهب الآن لأرى نشاط الحملة الخيرية.

قال سلمى وقد غلبتها عيونها:

- لا تتأخر سأنتظرك.

- لماذا ستنتظريني؟

ردت مخفية ارتباكها:

- لكي أرى ماذا فعلت.

- لا عليكِ فالوقت قد تأخر وسأبلغك بما يستجد.

أومأت سلمى الحلواني برأسها ليوسف المصري الذي غادر المكان سريعا تاركا سلمى الحلواني تتمتم بكلمات لم يستطع قلبها كتمانه أكثر من هذا: سأنتظرك حتى آخر العمر، فما يمر يوم حتى يزداد حبي لك، ولكن سيبقى السؤال الأهم، هل هو يحبني أيضا؟؟ ودق قلبها في عنف وهو لا يجد إجابة لهذا لسؤال الذي يحتمل إجابات كثيرة بل كل الإجابات.

دخل يوسف المصري سريعا للمكان المخصص للجزء الخيري من المستشفى ليجد الإقبال جيدا فأعداد المرضى ليست قليلة والجميع يعاملونهم بمنتهى الاحترام والتقدير، وفوجئ بمن يربت على كتفه قائلا:

- ها قد وفينا بوعدنا كما وفيت بوعدك يا أستاذ يوسف.

نظر يوسف المصري خلفه ليجد مدام شوقية رئيسة لتمريض وهي تبتسم إليه في رضا وسعادة فأكملت قائلة:

- لا أخفيك سرا، إني لم أكن أصدقك في بادئ الأمر ولكنني كنت مخطئة فما رأينا منك إلا كل خير.

- بل أنتم أهل الخير وكل ما فعلت فقط هو إظهار حقيقة نفوسكم الطيبة.

- أشكرك، وقد لا تعلم أن أغلب الممرضين الموجودين حاليا في القسم الخيري هم متطوعون رافضين أخذ أي مقابل لخدمة المرضى الفقراء فرواتبهم الآن تكفيهم ومن باب رد الجميل تبرعوا بأوقاتهم للمكان هنا عن طيب خاطر بل ويتسابقون في ذلك وقد فعل ذلك ممرضون لم أكن أتوقع فعلهم هذا، فليس كل الممرضين ملائكة رحمة بل منهم من يفوق زبانية جهنم.

- أنتم بالفعل ملائكة الرحمة ولكن أغفل الجميع كونكم بشر في حاجة للتقدير المعنوي قبل المادي.

- لولاك ما وصلنا لهذا يا يوسف فشكرا لك.

- إذا أردتم شكري فعلا فابقوا على ما أنتم عليه ويقينا الخير سيحمي صاحبه.

تركها يوسف المصري وصار يتجول وسط المرضى يتابع نقاشهم ويسألهم عن مستوى الخدمة فلم يجد مشاكل تُذكر على العكس وجد ترحيبا من المرضى وأهاليهم فذلك مريض بالقلب يحكي كيف تحسنت حالته على العلاج فصار يستطيع التحرك والنزول للصلاة بعد أن كان طريح الفراش، وتلك المرأة التي كانت تشتكي من آلام الظهر تبتسم في فرحة بعد أن قلت آلامها فأصبحت تستطيع النزول للسوق لبيع بعض البلاستيكيات الخفيفة كي توفر قوتها وقوت أولادها اليتامى، ناهيك عن فرحة الأم بصغيرها الذي يبتسم في براءة تخطف القلوب بعد أن كاد يشرف على الموت نتيجة نزلة معوية وتم إسعافه، هي فرحة لا توصف بتفريج كربات الغلابة بعد أن تركهم الجميع.

أكمل يوسف المصري سيره وسط المرضى في تواضع مبتسما للجميع داعيا لهم بتمام الشفاء في الوقت الذي يبكي قلبه فرحا بظهور نتيجة فكرته وحلمه على الواقع حيث يجد الفقراء علاجا آدميا بتكلفة بسيطة بعد أن تكالب عليهم الجميع دون رحمة في ظل مجتمع مادي لا مكان فيه للرحمة بل للقوة والسطوة، فإما أن تكون ذئبا مثلهم أو تطأك الأقدام بلا هوادة، هنا يا يوسف ستجد راحة قلبك التي تبحث عنها طوال

عمرك، هنا ستجد الطمأنينة، هنا ستجد الفرحة الحقيقية، هنا ببساطة ستجد الحياة ولكن لا يزال هناك ذلك الهاتف المجهول الذي يخشاه يوسف المصري وينغص عليه فرحته بالمشروع الخيري فلننتظر ونرى.

أخذ يوسف المصري يتابع الأفكار الذي يرسلها إليه فريق التسويق في اهتمام لعله يجد الفكرة التي يطور بها خطة التسويق، وفجأة دق هاتفه المحمول برقم غريب غير مسجل على هاتفه ليجيب باهتمام:

- من معي؟

- أستاذ يوسف المصري؟

- نعم أنا.. من حضرتك؟

- ستعرف عما قريب ولكني أريد أن أقابلك في أقرب وقت.

- ولماذا تريد أن تقابلني؟

- كي أؤكد لك الشكوك التي تجول بصدرك.

- وكيف عرفت؟

- ستعرف كل شيء عندما نتقابل، هل تعرف الحديقة التي افتتحت حديثا على أطراف المدينة؟

- نعم أعرفها.

- سأنتظرك عند النافورة غدا في الرابعة مساء، هل يناسبك؟

- يناسبني.. سأكون في الموعد هناك، ولكن كيف سأعرفك؟

- لا تقلق أنا أعرفك.

أغلق يوسف المصري الهاتف وقلبه يدق بعنف فرغم أنه رأى نجاح خطته وفكرته إلا إنه كان يشعر دائما أن هناك أمر يُدبر بليل وعاد لمكتب سلمى الحلواني وقد تغيرت ملامح وجهه وبدا عليه الكثير من القلق والوجوم وبالطبع لاحظت سلمى الحلواني تغيّر ملامح يوسف المصري فبادرته بالسؤال:

- ماذا بك يا يوسف؟

- لا شيء فقط لم أنم جيدا.

- أنا أعرفك جيدا، ليس الأمر قلة نوم فأنت يمر عليك باليومين دون نوم ولا تكون هكذا.

- فقط أشعر ببعض الإجهاد، لا تقلقي سيمر الأمر على خير.

- أنت قلق بخصوص المشروع الخيري وهناك ما ينغص عليك فرحتك بتنفيذه، بل وترى أن هناك أمرا ما مُدبر بليل، لا تظن أن شهاداتي ورقية فقط يا يوسف فعمل التسويق يعتمد على سبر أغوار العميل ومعرفة رد فعله من نظرات عينيه، أنا أعلم جيدا أنه من الصعب تقبل تغير تفكير إدارة المستشفى بهذه السهولة فالحدأة لا تلقي كتاكيت كما يقولون، ولكن ما فعلناه هو اقتناص الفرصة لتنفيذ خطتنا إلى أن نصل لما هو خلف هذا الأمر وسأصل إليه مهما كلفني الأمر.

لم يستطع يوسف المصري إخفاء نظرات الإعجاب التي سيطرت عليه من جراء ما سمع فقد وجد من يفكر مثله تماما بل كما يقولون وجده من يفكره ولم يجد سوى تلك الكلمات:

- بالفعل تستحقين منصبك.

ردت في حماس:

- لن أقول إني في ظهرك دعما لك بل أنا في جوارك ومصيري مصيرك.

ابتسم يوسف المصري في خجل وقد دق قلبه بعنف حيث خالط قلبه شعور غامض لم يشعره من قبل، ذلك الشعور الذي يجعل القلب كطائر محبوس في قفصه يتحرك يمينا ويسارا طلبا للحرية فيبدو أنه قد ذاق ذلك الشعور الذي طالما سمع عنه، يبدو أنه صار محبا، بل صار عاشقا حتى النخاع.

عاد يوسف المصري لمنزله وقد تداخلت المشاعر في قلبه ما بين الحب الوليد وما بين الأسئلة حول المتصل الذي سيقابله في اليوم التالي، فجلس في الشرفة ناظرا للسماء والتي اختفى قمرها فصارت معتمة اللهم إلا من بعض النجوم التي تضيء على استحياء، فغمغم في ملل يبدو أن الليل سيكون طويلا فلنصنع كوبا من الشاي كي أستطيع التفكير في هدوء فقام سريعا لصنع الشاي وعاد لمكانه في الشرفة ناظرا للسماء مخاطبا نفسه: من أنت أيها المتصل الغريب؟؟ ومن أين تعرفني؟؟ وماذا تعرف عن الهاجس الذي يجول بخاطري تجاه القسم الخيري؟؟ لن يستطيع عقلي النوم وهو لا يجد إجابات لتلك الأسئلة. فأكمل نظره للسماء دون هدف ليستفيق فجأة وهو ناظر لتلك النجوم البعيدة المتلألئة والتي اجتمعت كي ترسم ذلك الوجه الباسم الذي يعرفه جيدا ليرقص قلبه طربا منتشيا وهاتفا باسمها "سلمى".

لم يشعر يوسف بمرور الدقائق وسط هيامه بوجه سلمى المتألق في السماء لدرجة أن كوب الشاي كاد أن يصبح شايا مثلجا، وفجأة انقبض قلبه فوجه المحبوبة قد بدأ يختفي شيئا فشيئا وتبدلت بسمتها قلقا لتمد يدها نحو يوسف الذي مد يده بدوره لدرجة أن كاد يسقط من الشرفة كي يلحق بيدها، ولكن لا تأتي الرياح بما تشتهي سفن المحبين، فالنهار قد جاء واختفى معه وجه المحبوبة، فها هي العادة أن الأشياء الجميلة لا تدوم طويلا ولكن يبقى الأمل في العودة فلا بد لليل المحبين أن يعود.

نظرت سلمى الحلواني في ساعتها بقلق شديد وهي تقف أمام نافذة مكتبها الأنيق فليس كعادته أن يتأخر يوسف، وهاتفه مغلق وهذا لا يحدث أبدا، محدثة نفسها: أرجو ألا يكون قد أصابه مكروه، أرجوك لا تتأخر كثيرا يا يوسف فقلبي لا يتحمل ذلك. وسرعان ما قفزت فرحة كالطفلة التي أهداها أبوها قطعة من الشيكولاتة المحببة حيث ظهر يوسف يدخل من باب الشركة لتتخلى عن وقارها لتقابله على باب المكتب متسائلة بلهفة عن سبب تأخره ولحسن الحظ أن المكتب كان خاويا حيث كان فريق العمل كله في مهمات خارج المكتب.

رد عليها يوسف بصوت يملؤه التعب:

- عذرا فقد نمت متأخرا بالأمس ولم أستطع الاستيقاظ في وقت العمل.

زاد القلق في نبرات صوتها:

- ماذا بك يا يوسف؟ يبدو أنك تحتاج لإجازة تستريح فيها قليلا.

مغمغة بينها وبين نفسها: بالطبع لن يأخذ أجازة فكيف سأسمح له أن يغيب عن عيوني.

- لا تقلقي سأكون بخير فقط سأحتسي كوبا من قهوة عم مسعود وسأستعيد كامل وعيي.

- كما تشاء، سأتركك تستريح وإن احتجت شيئا ستجدني بجوارك.

- ونِعم الجوار.

ابتسمت سلمى الحلواني في خجل ودخلت سريعا لمكتبها لدرجة أن كادت تتعثر وهي تجري نحو غرفتها.

ارتبك يوسف المصري واستعاد تركيزه بسرعة فكيف يسمح لقلبه أن يتحدث بدلا من عقله، هل لاحظَت ما قلته؟؟ ويحك يا قلب ماذا فعلت بي؟؟

أغلقت سلمى الحلواني الباب خلفها بعنف لتسند ظهرها إليه وقلبها يكاد يخرج من محبسه: هل يقصد يوسف ما قال؟؟ هل يحبني بالفعل؟؟ لقد

رأيت حلما غريبا أني في السماء وأمد إليه يدي ومد إلي يده ولكن لم تتلاق اليدان للأسف، هنا تدخل العقل قائلا: لا تحبيه هكذا يا سلمى فالجرح القديم كاد أن يندمل وإن فُتح مرة أخرى فلن يندمل، أجابت: أعلم هذا ولكن قلبي يأبى ذلك وأنا لن أعصي قلبي، لن أعصيه أبدا.

لم يتحرك يوسف من مكتبه هذا اليوم فقد بلغ منه الإجهاد مبلغا عظيما فآثر أن يوفر ما تبقى من طاقة ليقابل ذلك المتصل في الوقت الذي كانت سلمى تراقبه كل عشر دقائق كي تطمئن عليه، ولولا ازدحام المكتب لجلست أمامه طوال اليوم.

- هل ستأتي للموعد؟

رسالة جاءت ليوسف على هاتفه من المتصل الغريب ليرد عليها بالإيجاب في الوقت الذي مرت فيه الدقائق برتابة مانحة ليوسف بعضا من الراحة كي يستعيد بعضا من نشاطه.

- سأنصرف الآن فلدي موعد هام.

قالها يوسف وهو يحاول أن يقف متماسكا أمام سلمى التي لم تستطع إخفاء قلقها عليه.

- هل أنت بخير؟

- لا تقلقي عليّ سأكون بخير، فلنتقابل غدا.

- فلتذهب وتستريح بدلا من موعدك.

- راحتي في هذا الموعد.

شعرت سلمى الحلواني بالغيرة مخاطبة نفسها: هل سيذهب لمقابلة حبيبته؟ هل كان يخدعني؟ كلا لن أتركه لهذه ال..

قاطعها يوسف المصري قائلا:

- هل تقولين شيئا؟

- كلا كلا، اذهب لها الآن ستتأخر عليها.

ابتسم يوسف المصري رغم آلامه قائلا:

- إني ذاهب لمقابلة صديق قديم لأخرج من دوامة العمل.

استعادت سلمى الحلواني سريعا ضحكتها الطفولية قائلة:

- هذه حياتك الشخصية فقط نريدك أن تكون بخير من أجل، من أجل مصلحة العمل طبعا.

ذهب يوسف المصري في موعده تماما للحديقة ووقف عند النافورة المتفق عليها ولم يجد أحدا وما هي إلا دقائق ووجد من يربت على ظهره قائلا:

- عذرا للتأخير فالطرق اليوم مزدحمة.

التفت يوسف المصري في حده ليجد أمامه وجها مألوفا قائلا:

- عفوا لقد رأيتك من قبل، دكتور محسن عبد اللطيف على ما أذكر.

رد دكتور محسن:

- يالذاكرتك القوية يا أستاذ يوسف! فرغم أني تركت العمل بالمستشفى منذ فترة طويلة حيث تلاقينا مرة أو مرتين على الأكثر لكن هؤلاء هم أهل التسويق تعتمد على ذاكرتهم أكثر مما تعتمد على ذاكرة هاتفك أو حاسوبك.

ابتسم يوسف المصري في مجاملة مكملا حديثه:

- هل حضرتك من اتصلت؟

- نعم أنا من اتصلت فلدي الكثير ما سأقوله لك.

- كلي آذان صاغية.

- فلنجلس في هذا الركن البعيد بعيدا عن عن المراهقين والمراهقات المنتشرين في الحديقة والذين لا أعلم صدقا ماذا سيفيدهم ذلك الحب المنقوش على الهواء.

- الحب لا يرتبط بعمر.

- ولكن يرتبط بمجتمع، فهل من هؤلاء الأطفال قد فكر يوما ما في المآل المسدود ذلك الحب وإلي أين سينتهي؟ هل سيقبل الأهل بزواج قائم على الحب فقط؟ يكفي يا سيدي تلك المشاحنات التي تتم حول ذلك الكائن المقدس المسمى بالنيش لكي تطرد ذلك الحب إلى غير رجعة فما يحدث الآن ليس إلا تسلية متبادلة من طرفين لا يحملان أي مسئولية وسيكون الأهل محظوظين إن انتهت تلك التسلية بدون أي خسائر في الأعراض.

- لن يستفيق المجتمع للأسف ولن يكلف نفسه بالالتفات إليهم فالكل مشغول بدوامة لقمة العيش.

- فلنترك تسليتهم جانبا فما سأقوله لك كارثة، كارثة بكل المقاييس.

ارتجف قلب يوسف المصري خوفا:

- أي كارثة؟؟

- ستعرف كل شيء بالتفصيل، بل بالتفصيل الممل.

وأخذ د. محسن عبد اللطيف يسرد ما يعرفه في الوقت الذي اتسعت عينا يوسف المصري في ألم وغضب شديدين فما يسمعه كارثة بالفعل، كارثة بكل المقاييس.

أخذت سلمى الحلواني تتجهز لمغادرة مكتبها بعد انتهاء الدوام بالمستشفى لتجد اتصالا من د. إبراهيم البحيري فردت باحترام:

- أهلا وسهلا د. إبراهيم.

- أهلا بك، أريدك في مكتبي الآن.

- لكن الوقت تأخر ولدي موعد.

- ولكن الموعد لن يعطيك راتبك الضخم، أنتظرك الآن.

أغلقت سلمى الحلواني هاتفها في امتعاض وذهبت لمكتب د. إبراهيم البحيري الذي قابلها بلا مبالاة مدخنا سيجاره المعتاد قائلا:

- من الآن أريد منك البدء في حملة التسويق الخاصة بالفرع الجديد للمستشفى بالتجمع الخامس مع التأكيد على أهم شيء بالفرع الجديد.

- وما هو؟؟

- أن القسم الخيري سيتواجد هناك أيضا بل وبتوسع كبير وسيشمل كافة الخدمات الطبية من أدوية وتحاليل بل وجراحات وبأسعار زهيدة بل وسنوفر لهم الانتقالات لمن لا يستطيع المجيء.

هزت سلمى الحلواني رأسها في تعجب:

- كما تأمر يا فندم سنبدأ في الحملة من الآن.

- سأنتظر ملامح الخطة على مكتبي غدا، أغلقي الباب خلفك.

خرجت سلمى الحلواني من المكتب وقد تعاظمت الشكوك في عقلها بل تأكدت أن هناك أمر كبير يدور في الغرف المغلقة ولكن لا أحد يعرف ماهيته، فغمغمت قائلة: يجب أن أعرف ماذا يحدث ولكن أحتاج للتفكير بصوت مرتفع مع من أثق بهم، بالطبع سأحتاج للحديث مع يوسف ولكن أين هو الآن؟

- وكيف سأصدق كل ما قلته يا دكتور محسن؟

قالها يوسف المصري بصوت مبحوح من فرط انقباض صدره بما سمع.

- توقعت سؤالك فالأمر صادم بالفعل فأنا أحتفظ بنسخ من كل المستندات التي تدل على ما قلت، بالإضافة لنقطة ثانية مهمة أني طبيب مشهور

لست بحاجة لمال كي أبتزهم بتلك المستندات، فكما ترى هاتفي بعلامته الشهيرة الغالية الثمن وسيارتي الجديدة، ولكنها أمانة المهنة التي تلوثت بالكثير من الموبقات لعل وعسى يبقى بها بعضا من البياض وسط ما نحياه، ستصلك نسخة على هاتفك بكل المستندات التي تثبت كلامي ولكن رجاء ألا يُذكر اسمي أمام أي فرد، فتلك المافيا لن ترحمني فقط سجل رقم هاتفي باسم مستعار لنتواصل عليه، سأتركك الآن فقط كن حذرا فأنت الآن في جحر الثعالب التي لا ترحم الدم الذي سيسيل بل على العكس الدم سيزيدها افتراسا.

انصرف د. محسن عبد اللطيف سريعا وهو ينظر حوله لعل هناك من يتابعه أو يراقبه واختفى عن نظر يوسف المصري الذي أحس بغصة شديدة في حلقه تضيق عليه أنفاسه، فالأمر كارثي وللأسف كان هو السبب الرئيسي دون أن يدري في تلك الكارثة.

ألقت سلمى الحلواني جسدها على أقرب أريكة لها في منزلها وقد بدا عليها الإجهاد الشديد بعد يوم طويل من العمل الشاق دون أن تأكل جيدا، فأمور المستشفى قد أفقدتها شهيتها للأكل أو الشراب لتنظر لسقف المنزل محاولة إعطاء المخ دقائق من الصفاء الذهني كي تستعيد قدرتها على التفكير فيما يحدث ولكن سرعان التقطت سلمى الحلواني هاتفها في شوق حينما سمعت النغمة المخصصة ليوسف المصري وقالت بلهفة:

- يوسف أين أنت؟

أجابها يوسف بصوت مبحوح:

- في طريقي للمنزل.

ردت وقد أقلقها صوت يوسف:

- ماذا بك يا يوسف؟ لا تبدو بخير.

- لن أخفي عليك هذه المرة فأنا متعب جدا.

دق قلبها بعنف لتكمل بصوت قلق:

- اذهب لاستقبال المستشفى وسآتي لك حالا.

- تعبي ليس جسديا، أريد أن أراك اليوم.

- تراني؟

وغمغمت في نفسها: هل سيصارحني بحبه؟

- نعم أريد أن أقابلك في أي مكان بعيد عن المستشفى فالأمر خطير للغاية.

قالت وقد بدا من صوته أن الأمر لا يتعلق بالحب:

- هل من الممكن أن تخبرني في الهاتف؟

- كلا فالأمر يجب أن نناقشه بعيدا عن الهاتف.

- فلنتقابل في الكافتيريا الملحقة بالنادي الاجتماعي بعد ساعة من الآن.

- إلى اللقاء.

أغلقت سلمى الهاتف وقد زاد خوفها على يوسف المصري الذي لأول مرة تسمع صوته هكذا فيبدو أن به من المشاكل ما لا يتحمله قلبه الكبير.

وصل يوسف المصري في الموعد المحدد للنادي الاجتماعي ليجد سلمى في انتظاره وقد أُسقط في يديها حينما رأته وقد زاد الانتفاخ حول عينيه بل وبدا مترنحا مما يشير إلى أنه لم يذق طعم النوم أو الأكل منذ فترة، وما إن جلس أمامها حتى أخذ صدره يعلو محاولا استنشاق الهواء وقد بدا أن قصبته الهوائية قد أغلقت أبوابها أمام الهواء.

جلس يوسف المصري لدقائق دون حديث حتى استعاد قدرته على الكلام والتنفس في الوقت الذي تنظر إليه سلمى الحلواني بشفقة وخوف على حاله.

- أعتذر عن إزعاجك في غير وقت العمل.

- لا عليك ولكني قلقة عليك ولا أعرف ما بك ولا كيف أساعدك.

- لا تقلقي عليّ سأكون بخير ولكننا في ورطة كبيرة وللأسف كنت أنا السبب فيها.

- ماذا؟ كيف هذا؟

شرب يوسف المصري قليلا من الماء كي يستطيع مواصلة حديثه مع سلمى الحلواني ليقص عليها كل ما قاله له د. محسن عبد اللطيف والتي امتلأت عيناها بالدموع جراء ما سمعت من يوسف المصري فالأمر لم يكن فقط خيرا كما توقعت بل كان حقيرا لأبعد الحدود.

ابتسم د. منتصر الشبراوي في خيلاء وهو يطالع التجهيزات النهائية على الفرع الجديد للمستشفى بعد أن تم إدخال كل التجهيزات التي طلبها كي تناسب انطلاق المستشفى ليحدث د. إبراهيم البحيري بضحكة عالية:

- يالك من شيطان، أنت تستحق راتبك الضخم بل وتستحق أن تكون مديرا للمستشفى، فنظرتي لم تكن خاطئة أبدا حينما اخترتك لهذا المنصب، لقد كنت جراحا صغيرا في المستشفى، ولكن قوة شخصيتك بالإضافة إلى مهارتك الطبية شجعتني في الاعتماد عليك ناهيك عن

طلبك المستمر للمال أكثر مما تم الاتفاق عليه والذي كنت تحاول أن تخفيه ولكنني كنت أعرف.

- تلميذك يا دكتور.

اعتدل د. منتصر الشبراوي في مجلسه باهتمام وقال:

- فلتستجمع تركيزك فالأمر الآن لا يحتمل الخطأ فالخطأ لن يكلفك راتبك الضخم فحسب ولكن سيكلفك رقبتك، فالمستشفى ستصبح المقصد الأول للشرق الأوسط وستكون محط أنظار شركات الأدوية العالمية، فلدينا الكنز الذي يفتقدونه.

ثم أكمل ضحكته العالية:

- لدينا البشر.

ثم التمعت عيناه في وحشية كالذئب الذي وجد فريسته، لعلها فكرة عبقرية أن يفكر ذلك الأبله المدعو يوسف المصري في عمل قسم خيري يجمع لنا المئات من المرضى الفقراء الذين بالطبع لن يعترض أيا منهم على تلك المستشفى الرحيمة التي ستتكفل بعمل التحاليل الشاملة على المرضى الفقراء، بالإضافة إلى العلاج بالأدوية لآلامهم، ناهيك عن جهل هؤلاء المرضى بأسماء الأدوية التي يأخذونها فمن منهم سيظن

أنها تجارب سريرية لشركات أدوية عالمية تجرب أدويتها الجديدة دون أدنى مسئولية عليها؟؟ من من هؤلاء الفقراء سيظن أن العملية الجراحية التي ستجرى له لاستئصال كما قيل له ورم على الكلية اليمنى والتي لم يوجد بها سوى بعض الحصوات البسيطة التي لا تحتاج إلا لشرب لترين من الماء النقي مع بعض الفوارات الرخيصة ليست إلا استئصال لكلية سليمة سيتم زرعها في جسد الأثرياء المصابين بالفشل الكلوي؟؟ وبالطبع لن يتردد الثري في دفع الآلاف من الأوراق الخضراء مقابل تلك الكلية.

- لا تقلق يا دكتور فقد اخترت العاملين في الأقسام الجديدة من أطباء وممرضين على يدي وأعلمهم فردا فردا بل وتحت يدي مستندات كفيلة بسجنهم إذا فكر أحدهم مجرد التفكير في الخيانة، لا تقلق فرقبتي قبل راتبي ستكون على يداي.

- سنبدأ العمل فورا، ستذهب الآن للمطار لاستقبال وفود شركات الأدوية كي نبدأ العمل الفعلي ولنبدأ المكسب الفعلي، فالفرصة جاءت ولن تأتي مرة أخرى، لن تأتي مرة أخرى.

لم تستطع سلمى الحلواني كبح دموعها جراء ما سمعت من أهوال في الوقت الذي جلس فيه يوسف صامتا لا يعرف ماذا يفعل لتبادره قائلة:

- ماذا سنفعل؟

رد بصوت مبحوح:

- لا أعلم ولكني لن أصمت على هذه الحقارة أبدا.

- كن حذرا فهذا قد يكلفك وظيفتك.

ابتسم ساخرا متحسسا رقبته:

- ليتها تقف عند راتبي فقط.

- ماذا تقصد؟

- الأمر ليس مجرد ممارسات حقيرة لاستغلال الفقراء من قِبل بعض الأطباء عديمي الضمير، بل مافيا عالمية للتجارة في البشر فياليت تجاربهم السريرية كانت في المرحلة الثالثة مثلا بل من المرحلة الأولى، أي أن الدواء لم تتم تجربته سوى على الحيوانات فقط، وبالطبع بمقابل باهظ، فما بالك لو تم توفير فئران التجارب البشرية بدون مقابل فما هو المقابل الذي سيحصل عليه الوسيط؟ وهؤلاء الوسطاء هم مافيا مصغرة لديهم أذرعتهم القاتلة التي ستطيح برأس من يفكر في الوقوف أمامهم.

- وماذا سنفعل؟

- عفوا اسمها ماذا سأفعل، لن أقحم أحدا معي في هذا الأمر.

- لن أتركك مهما كلفني الأمر فنحن فريق واحد.

- أنا من تسببت بالأمر وأنا من سأعالجه.

ردت سلمى وقد فاضت الدموع من عينيها:

- ولكني أخاف عليك.

- لا تقلقي فالخير سيحمي أصحابه.

- كلا لن أتركك وحيدا.

- وكيف سيكون حالي لو فقدتك؟؟

صمت يوسف للحظات بعد ما تحدث قلبه دون أمره فارتبك للحظات ثم استعاد بعضا من هدوئه قائلا:

- فهؤلاء ليسوا بشر بل ذئاب جائعة تفترس من يفكر في الوقوف أمامهم، كما أنك سيكون لك دور هام جدا بتواجدك وسط مجلس الإدارة لإبلاغي بأي تطورات مريبة، ولكن لا تقومي بأي رد فعل يضرك مهما كان الموقف الذي أمامك.

لم تجد سلمى ما تقوله فصمتت حتى أخبرها يوسف أنه سيضطر للعودة لمنزله للنوم والتفكير فيما سيحدث فودعته متحاشية النظر لعينيه كي لا يرى دموعها.

عاد يوسف المصري لمنزله مترنحا وقد باتت كل خلايا جسده تصرخ من الإجهاد ليجلس على الأريكة المقابلة للشرفة لعل وعسى يلتقط بعض الأنفاس التي تريح قلبه، ولكنه استعاد نشاطه فجأة فالآن وقت الليل قد جاء، قد جاء وقت النظر لوجه محبوبته مبتسما بين النجوم فلنضع كل المشاكل والآلام جانبا فإذا حضر وجه المحبوب فلا ينافسه أحد.

مرت الأيام بلا أي شيء جديد يذكر، فقط إيماءات متبادلة بين سلمى الحلواني ويوسف المصري تفيد بعدم الوصول لأي معلومة جديدة، بل على العكس بدا الجميع منشغلين بالفرع الجديد الذي تم افتتاحه والذي لم يتم السماح لأحد من الفرع القديم الذهاب إليه إلا لأناس محددين تم اختيارهم من قِبل د. إبراهيم البحيري.

- لن أترك حقي أبدا أيها اللصوص.

كلمات صرخ بها أحد المرضى من القسم الخيري أمام أبواب المستشفى واجتمع الناس حوله في فضول معتاد في مثل هذا المواقف، ولكن سرعان ما التف حوله رجال أمن المستشفى بأجسادهم الضخمة ليمنعوه

من الصراخ، وما بين شد وجذب أفسح الجميع لذلك الرجل الأنيق بنظارته الشمسية الباهظة الثمن وما إن وصل الرجل الأنيق أمام المريض حتى ربت على كتفه بحنان مصطنع قائلا:

- فلتهدأ يا عزيزي فكلنا هنا لخدمتك.

رد المريض وهو يحاول التملص من هؤلاء مفتولي العضلات:

- لن أهدأ حتى أسجنكم جميعا.

رد الرجل الأنيق:

- لا يبدو المكان هنا مناسبا للحديث، هلا تفضلت بالجلوس في مكتبي كي أتفهم منك ماذا حدث.

تلفت المريض حوله لعله يجد من يدافع عنه ولكن خاب مسعاه حيث تعامى الواقفون عن النظر إليه فضلا عن مساعدته ثم قال:

- كلا لن أذهب لأي مكان قبل أن آخذ حقي.

رد الرجل الأنيق وقد تغيرت لهجته الحانية للهجة أكثر صرامة:

- طالما بقيت هنا لن تأخذ حقك ولن يلتفت إليك أحد فلتتبعني كي لا تخسر كل شيء.

أَسقط في يد المريض ليعلن استسلامه للأمر الواقع ويتبع الرجل الأنيق إلى مكتبه الذي بدوره نظر حوله ليرى من لاحظ الأمر فلم يجد أحدا فسار بثقة نحو مكتبه الفخم وتبعه رجال أمن المستشفى محيطين بالمريض المكلوم وبالطبع لم يلحظ أحد أن هناك من تابع الأمر منذ الوهلة الأولى، حيث كان يوسف المصري بالمصادفة يمر على المستشفى الخيري للاطمئنان على سير الأمور به وظل متابعا للمريض الذي سرعان ما خرج من مكتب مدير الأمن وقد ظهرت ملامح الغضب على وجهه ليخرج من المستشفى سريعا فتابعه يوسف المصري دون أن يشعر به إلى أن استقل المريض أحد الأتوبيسات العامة ولحقه يوسف المصري الذي لم يفلت عينيه من على المريض، فقد يكون هذا المريض هو الخيط الذي سيقوده نحو الوصول لخفايا تلك المافيا الحقيرة، وبعد ربع ساعة من المسير وصل الأتوبيس لمحطته النهائية في أحد المناطق الشعبية المكتظة بالسكان لينزل المريض متجها نحو أحد الأزقة التي يكابد فيها ضوء الشمس الأمرَيْن كي يصل لأرضها حيث لا تستطيع السير بأريحية إذا قابلك شخص يمشي في الاتجاه المعاكس فيجب أن تميل بجذعك كراقص الباليه كي تتجاوزه وفجأة حدث ما لم يتوقعه يوسف حيث التفت إليه المريض في حدة قائلا:

- لماذا تتبعني؟

لم يهتز يوسف المصري من رد الفعل ورد بابتسامة صادقة:

- أريد مساعدتك.

- لا أريد مساعدة من أحد، كلكم متشابهون، لا هم لكم سوى امتلاء أرصدتكم البنكية حتى ولو على حساب من لا يجدون قوت يومهم.

رد يوسف ناظرا لعيني المريض في صرامة وتحدي:

- لست مثلهم وستعرف.

- وما الذي سيثبت لي ذلك؟

- هلا نجلس ونتحدث؟

هدأ المريض قليلا ثم أشار ليوسف أن يتبعه ليدخلا لمنزل متهالك قد بني أغلبه من الطين ومطعم بأبواب خشبية عطنة متآكلة بفعل الزمن وسوء التهوية وبالطبع هذا المستوى المعيشي قد فسر ليوسف الحدة والغضب التي يتعامل بها المريض ولم ينتظر يوسف المصري طويلا ليبادر قائلا:

- يا سيدي الكريم أعلم ما تمر به، لكن عفوا هل من الممكن معرفة اسمك؟

- ضياء السنّاوي، عامل باليومية في إحدى شركات المقاولات.

- وأنا يوسف المصري من قسم التسويق بالمستشفى وصاحب فكرة المستشفى الخيري، لكني أقسم لك أني لم أكن أعلم شيئا عمّا يحدث بالمستشفى.

رد ضياء السنّاوي متهكما:

- لا تدنس القسم كي ترضي صعلوكا مثلي.

- أولا أنت لست صعلوكا بل إنسانا روح مقدسة خلقها الباري بيديه، ثانيا لا شيء يجبرني كي أدنّس قسمي بالكذب فأنا هنا من أجلك ومن أجل حقك.

اعتدل ضياء السنّاوي في مجلسه مبديا بعض الاهتمام وقال:

- وهل ستعيد لي كليتي المسروقة؟

ابتلع يوسف المصري لعابه في غضب مكتوم فهو وإن كان من غير قصد كان سببا لآلام ضياء السناوي فأجاب بصوت متحشرج:

- بالطبع لن أعيدها ولكن على الأقل سنحاول تعويضك جزئيا بالإضافة ألا يحدث ذلك لأحد آخر.

- ولكن كيف ستواجه هؤلاء اللصوص؟ فلديهم كلابهم الذين سيفتكون بك بمجرد الشك في نواياك.

- الخير سيحمي أصحابه، ولكن أخبرني ما الذي قاله لك مدير أمن المستشفى؟

رد ضياء مبتسما في سخرية:

- قدم عرضا واضحا فقد وعدني بتعويض مالي إذا لم أتحدث وإن تحدثت فسأفقد رقبتي.

- لن يستطيعوا فعل ذلك فهم لا يريدون لفت النظر لما يفعلونه في السر ويجب أن تؤمن نفسك.

- وكيف؟

- سأتواصل مع طبيب صديق من الذين لديهم ضمير المهنة وسنجري فحوصات شاملة لنثبت سرقة كليتك.

- ستثبت الفحوصات أني بدون كلية يمنى ولكن كيف سنثبت أني سُرقت في المستشفى؟

- هذا دوري لا تقلق.

- يبقى لدي سؤال يؤرقني.

- لماذا أفعل معك هكذا؟ أظن أن هذا هو سؤالك.

- نعم هو سؤالي.

- لأني صاحب تلك الفكرة التي دنسها أولئك اللصوص وسأظل أدافع عنها مهما كلفني وبالطبع أنا مسئول عما حدث لك وأريد أن أكفِّر عن ذنبي تجاهك.

- ولكن هذا قد يكلفك حياتك.

- أعلم ذلك ولكني لن أتراجع.

- كما تريد وأنا ليس لدي ما أخسره.

- فقط لا تخبر أحدا عما جرى بيننا وهذا هو رقمي اتصل بي وقتما شئت، سأنصرف الآن وحقك مسئوليتي من الآن.

خرج يوسف المصري سريعا من المنزل متلفتا يمينا ويسارا لرؤية إن كان أحدا يراقبه تاركا ضياء السنّاوي خلفه يفكر في هذا الشخص المجنون الذي يريد أن يضحي بحياته فضلا عن وظيفته من أجله مريض فقير لا يساوي شيئا في مثقال اللصوص الذين سرقوا كليته.

- لماذا أحب يوسف؟

نطقتها سلمى الحلواني بشوق وقد هرب منها النوم ناظرة لسقف حجرتها لتكمل حديثها: لست مراهقة كأولئك المائعات اللاتي يسيل لعابهنّ لرؤية شاب وسيم أو مفتول العضلات، فعملي علمني جيدا معرفة الشخصية التي أواجهها وهل هي شخصية قوية كما تبدو من مظهرها الخارجي أم شخصية هشة تتهشم مع أول موجة عاتية، وليس معنى هذا أني من ذوات مفهوم الاسترونج اندبندت وومن بل على العكس إني أريد أن ألقي بضعفي في قلب قوي يحميني من الدنيا ومن غدر البشر، أنام بعمق على إيقاع نبضات قلبه بعيدا عن ضوضاء ذلك الكوكب العفن، فلماذا يا قلبي أحببته؟؟ أكملت وهي تداعب خصلات شعرها في دلال: لا أنكر كونه وسيما ولكن ليس لهذا ولكني وجدته إنسانا في زمان الذئاب، وكونه كذلك سيحميني بقلبه مهما كانت الظروف، لن يتركني إن تبدل حاله كما فعل سابقه، بل وستظل جذوة إخلاصه لقلبي مشتعلة مع مرور الزمن فيكون نعم العكاز على نوائب الزمان، لا تسلني كثيرا يا قلبي فأنا أحبه وكفى. ثم ضمت صورته على هاتفها ونامت في عمق وهي تتخيل صوت أنفاسه تداعب خصلات شعرها.

أخذت مدام شوقية رئيسة تمريض المستشفى ترتب أوراق ملفات المرضى في حماس وإتقان لتتأكد من استيفاء المرضى لعلاجهم، فقد تغير حالهم بالفعل منذ أن بدأ ذلك الشاب النقي في مشروعه التسويقي، وقد قلت الشكاوى من التمريض بالمستشفى بل كادت تنعدم، وبعد أن اطمأنت لترتيب الملفات نظرت للساعة الأنيقة المعلقة على الحائط فوجدت أن موعد انصرافها قد مضى عليه ساعة ونصف الساعة وهي لم تشعر بذلك لاندماجها باستمتاع بعملها السامي فلملمت حاجياتها سريعا لتوقع بصمة الانصراف وانصرفت متوجهة لمنزلها وما إن ابتعدت عن المستشفى حتى سمعت صوتا مألوفا يناديه من خلفها فالتفتت بحدة لتجد يوسف المصري وقد بدا مجهدا كئيبا على غير عادته فسألته عن حاله بقلق:

- ماذا بك يا أستاذ يوسف؟؟ تبدو منهكا.

- لا عليك، لا تحملي همي ولكني في حاجة ماسة إلى مساعدتك.

ردت مدام شوقية وقد بدا عليها القلق الشديد على حاله:

- بالطبع فلتطلب ما تشاء.

نظر حوله بحذر ثم أشار إليها بالسير في شارع جانبي فسارت معه وما إن دخلا للشارع الجانبي حتى قال لها:

- الخدمة التي سأطلبها ليست سهلة، بل خطيرة.

- فلتأمرني فما فعلته معنا يجعلنا نقف بجانبك حتى لو كلفنا ذلك وظائفنا.

- ليتها تقف عند وظيفتك، فقد تفقدين فيها رأسك.

ارتدت مدام شوقية للخلف في خوف:

- ماذا؟؟

- كما أخبرتك، ولكِ الخيار ولن أجبرك بالطبع فقط إن لم تستطيعي فلا تخبري أحدا.

ترددت مدام شوقية قليلا ثم استجمعت شجاعتها ثقة فيه وقالت:

- العمر واحد والرب واحد.

ابتسم يوسف المصري في امتنان بعد أن تأكد أنها لن تخذله ثم بدأ يقص عليها ما علمه عما يدور بالمستشفى فلم تستطع مدام شوقية كبح دموعها الغاضبة من السيل على وجنتيها ولكن سرعان ما استعادت تماسكها على غير المتوقع قائلة:

- وكيف تريدني أن أساعدك؟

- أريد صورة من ملف مريض يدعى ضياء السنّاوي.

- ضياء السنّاوي، لا أعتقد أني رأيت هذا الاسم سأحاول البحث عنه وسأرد عليك وقتما أجد شيئا.

- لا أعرف كيف أشكرك ولكن كوني حذرة فنحن نتعامل مع ذئاب في هيئة بشر.

- لا تقلق فالخير سيحمي صاحبه.

نظر الاثنان حولهما بحذر وانصرف كل منهما في طريقه ولسان حالهما: نحن ذاهبان لطريق وعر مليء بالمكائد والأدهى أنه بلا عودة.

مر يومان ومدام شوقية تحاول البحث في السجلات لمتاحة عندها عن ملف ذلك المريض ضياء السنّاوي ولكن دون جدوى، وخطر في بالها البحث في سجلات المستشفى الجديدة ولكن كيف؟ فهي لا يسمح لها بالدخول لتلك المستشفى، ولكنّها تذكرت الممرض السيد موافي الذي انتقل للعمل بالمستشفى الجديد، فرغم أخلاقه السيئة إلا إنه يكن لها نوعا من التقدير حيث إنها كانت السبب في إلحاقه بالعمل في المستشفى كمساعد ممرض وتوسطت له كثيرا كي يتم ترقيته فضلا عن تثبيته

بالعمل كونه جارا لها، لذا لم تتردد في الاتصال به، ولحسن حظها كان إجازة في ذلك اليوم فتحدثت له عن أحد أقربائها الذي يُدعى ضياء السنّاوي وأنها تريد الاطمئنان عليه فأجابها السيد موافي بأنه بمجرد عودته من الأجازة سيطمئنها عليه.

دق هاتف الدكتور إبراهيم البحيري ليجد اتصالا من مدير أمن المستشفى:

- صباح الخير، ماذا تريد؟

رد مدير الأمن بصوت مضطرب:

- يبدو أن هناك من يفتش وراءنا عما يحدث بالمستشفى.

قفز د. إبراهيم من مكتبه بغضب شديدة موجها حديثه لمدير الأمن:

- ماذا؟؟ من هذا اللعين؟

أجاب مدير الأمن وقد بدا صوته أكثر اضطرابا:

- لقد جاء أحد المرضى الذي تم أخذ إحدى كليتيه للمستشفى الجديد بعد أن اكتشف ما حدث له ولم يستطع الدخول فجاء للفرع القديم وأحدث

جلبة وعندما تحفظت عليه في مكتبي أنه سيتم تعويضه ماليا وبالطبع لو تحدث فسيكلفه ذلك حياته.

زاد صوت د. إبراهيم غضبا وبدا من حسن حظ مدير الأمن أنه لم يكن موجودا أمامه وإلا أطلق النار على رأسه دون هوادة:

- ولماذا لم تخبرني حينها أيها الفاشل؟؟ ألم تعلم أن أي خطأ لن يجعلك تستمتع بنظارتك الشمسية الفخمة والتي لن تجد رقبتك حينها كي تتكئ عليها؟؟

- ظننت الأمر بسيطا وسيخاف المريض على حياته ويصمت.

- لا مجال للظنون أيها الفاشل، أريد هذا المريض أمامي قبل أن تمضي الساعة وإلا فتحدث لأهلك كي يجهزوا قبرك.

- بالطبع يا دكتور قبل ذلك ستجده أمامك.

صرخ د. إبراهيم بصوت عال:

- لماذا يحيط بي الحمقى في كل مكان؟؟

ثم التمعت عيناه بوحشية مكملا:

- لن أسمح لأحد مهما كان بهدم ما فعلته بيدي، مهما كان.

ثم أمسك هاتفه ليخبر د. منتصر بما حدث الذي استقبل الخبر بهدوء مريب مكتفيا بكلمة واحدة فقط: اترك مكتبك ولتأتني حالا.

لم تمر دقائق معدودة حتى كان يقف د. إبراهيم أمام د. منتصر الشبراوي الذي أشار إليه في لا مبالاة بالجلوس ليشعل سيجاره الفخم في استمتاع ناظرا للدخان المتراقص فبادره د. إبراهيم بالقول:

- سنحل الموضوع ولا تقلق يا دكتور.

- بالطبع يجب أن يُحل فجسدك يحتاج رقبتك كي تعيش حسب ما تعلمنا في كتب الفسيولوجي.

رد د. إبراهيم البحيري متحسسا رقبته:

- بالطبع والخطأ لن يتكرر.

- ماذا ستفعل؟

- طلبت من الفاشل مدير الأمن أن يحضر لي المريض الذي تم البحث عنه وعندما سيأتيني سأفاوضه كي يخبرني من الذي يتواصل معه.

- وكيف ستضمن أنه سيكون في صفك؟

- بالمال وإلا قتلته.

رد د. منتصر الشبراوي مبتسما في سخرية:

- نعم اقتله وادفنه في حديقة المستشفى كي يكون عبرة لغيره.

ابتلع د. إبراهيم البحيري لعابه متجاوزا تلك السخرية:

- كيف ترى الحل يا د. منتصر؟

قام د. منتصر الشبراوي من على مكتبه متوجها نحو د. إبراهيم ليجذبه بعنف قائلا:

- سأخبرك ولكن هذه المرة لن أسمح بالخطأ، وإن حدث ذلك فلا داعي أن يقوم أهلك بفتح قبرك فلن يكون لجسدك أثر حينها..

ثم دفعه بعنف ليجلسه على المقعد، ثم أكمل حديثه قائلا:

- فلتكن آذانك صاغية وافعل ما سأقوله لك ولا تحيد عنه..

امتقع وجه د. إبراهيم البحيري ليرد بصوت مبحوح:

- أوامرك يا د. منتصر.

وبدأ د. منتصر الشبراوي يروي الخطة في الوقت الذي اتسعت عينا د. إبراهيم البحيري في بلاهة من هول ما سمع فما سمعه لا يخرج إلا من عقل الأبالسة بل لا يجرؤ حتى الأبالسة على التفكير فيه.

ما إن مرت نصف ساعة حتى كان ضياء السنّاوي يقف مرتعدا بعد أن وجد نفسه محاطا في بيته بأولئك المفتولين ليقتادوه عنوة ليجد نفسه أمام د. إبراهيم البحيري الذي بدوره قد استعاد جزء من هدوئه وثباته لينظر لضياء السنّاوي نظرة الذئب الذي يحوم حول فريسته المستسلمة ليبادره قائلا:

- لماذا تثير المشاكل؟

فكر ضياء السنّاوي أن يرد بقوة على د. إبراهيم ولكنه سرعن ما تراجع عندما تذكر فوّهات المسدسات الموجهة نحو قلبه، فليس له ديّة كما يقولون، فطلقة من الرصاص ستبعثه للعالم الآخر وسيكون محظوظا حينها لو تم دفنه ولم يتم معاملته كأي صرصور تم دهسه بلا مبالاة فازرد لعابه بصعوبة مكملا:

- لا أريد المشاكل بل أريد حقي.

- أي حق أيها الأبله؟؟ قد عالجناك مجانا وقمنا بعمل تحاليل طبية شاملة وباهظة الثمن دون أن تدفع قرشا واحدا وكل ما فعلنا أننا أخذنا حقنا مقابل علاجك.

- وهل المقابل كليتي؟

- دعك من هذا الهراء فما حدث حدث ولن نعود للوراء مهما حدث ولست هنا كي أفاوضك على هذا ولكني أعرض عليك العمل معي وبمقابل ما كنت لتحلم به أضعاف ما كنت ستحصل عليه مقابل كليتك المريضة.

حاول ضياء السنّاوي التفكير بعيدا عن فوهات المسدسات عن كنه ذلك العمل ولكن خلايا عقله أبت التفكير ولم يمهله د. إبراهيم البحيري كثيرا فقد أخرج من درج مكتبه مبلغا كبيرا من المال واضعا إياه أمام ضياء السنّاوي ليكمل قائلا:

- هذه دفعة من راتبك وبالطبع لا أريد أن أذكّرك بأن من يعمل معي ويتراجع فلن يكلفه ذلك سوى شيئا بسيط، حياته.

انهارت مقاومة ضياء السنّاوي حين رأى الآلاف التي ستكون من نصيبه إن وافق على العمل الذي لم يعلم كنهه بعد، ولكن أي عمل سيعطيه تلك الآلاف بالطبع لن يرفضه، وهو الذي كاد يفقد وعيه حين أعطاه أحد الكرام ورقة من فئة الخمسين جنيها ليكمل بصوت أذلته الأيام:

- أوافق يا دكتور حتى لو أردت كليتي الثانية.

ابتسم د. إبراهيم البحيري في هدوء:

- فلتجلس ولتسمعني جيدا ولتحفظ ما سأقوله واعلم أن النسيان يساوي رقبتك فقط، أخبرني من معك.

مرت الأيام ولم تصل مدام شوقية لشيء يذكر، في الوقت الذي لم يتواصل فيه يوسف المصري مع ضياء السنّاوي، فهاتف الأخير مغلق دائما مما أثار قلق يوسف المصري ولكنه هدّأ من روع نفسه بأن المناطق الشعبية تلك بها كثافة كبيرة بالإضافة إلى ضعف تغطية شبكات المحمول بتلك المنطقة.

- لا تخف يا حمزة فهم أناس طيبون سيقدمون لك العلاج المناسب والفحوصات اللازمة لحالتك وبدون مقابل بل ستحصل على بعض الصدقات.

قالها ضياء السنّاوي لصديق عمره حمزة أبو عاشور الذي جاءه يشتكي من آلام بالكلى.

رد حمزة:

- وما الذي سيجعل هؤلاء يهتمون لأمر صعلوك مثلي؟

- هؤلاء لديهم من الأموال ما تكفيهم طوال عمرهم هم وأولادهم فقط يريدون فعل الخير الذي سيخلد أسماءهم بعد موتهم.

رد حمزة وقد وضع يديه على ظهره لعله يخفف من آلام الكلى:

- كلا سأذهب للصيدلية لآخذ حقنة المسكن التي اعتدت عليها.

- وما الفائدة؟ فقد اعتدتَ على تلك الحقنة المسكنة فتستريح للحظات ويرتد عليك الألم بصورة أقوى..

وسكت برهة ثم أكمل في غضب مصطنع:

- لن أعرض عليك مرة أخرى فافعل ما شئت ولكن لا ترجع وتخبرني أنك تتألم.

هنا أسقط في يد حمزة فالألم بالفعل لم يعد يحتمل فاستسلم لضياء قائلا:

- فلنذهب لتلك المستشفى وليكن ما يكون فماذا ستأخذ ريح الأغنياء من بلاط الصعلوك؟

- لماذا تبعدني عنك؟

قالتها سلمى الحلواني وهي تجاهد كي لا تبكي موجهة حديثها ليوسف المصري بعد أن أصرت على مقابلته خارج المستشفى.

رد يوسف وقد فقد الكثير من وزنه وبدا عليه الشحوب ناصبا عينيه على كوب الماء الموجود أمامه:

- كما قلت لك سابقا لكي يكون هناك من يحاربهم ويعرف نواياهم الحقيرة إن سقطت أنا.

- ولماذا لا تريد أن تنظر إلي؟

رد يوسف بابتسامة حانية:

- ها أنا أنظر إليك.

- لماذا لا تجيبني بصراحة؟ لماذا تتحاشاني؟؟

- لأني أحبك.

تراجعت سلمى الحلواني قليلا للوراء ودق قلبها بعنف:

- وإذا كنت تحب فهل من الحب أن تتحاشى النظر لحبيبتك فضلا عن السؤال عنها؟

رد بصرامة:

- نعم من الحب، فمرارة الفقد أعظم من مرارة البعد.

- ولكني أريد أن أكون بجوارك.

- وأنا أتمنى ذلك ولكن ليس الآن، قد يكون ذلك يوما ما، أما الآن فلا، فقلبي لم يعد يتحمل ذنب هؤلاء الفقراء الذين تتم سرقتهم يوميا فما بالك لو حمل قلبي ذنبك أنت أيضا؟ رفقا به أيتها الحبيبة.

- وماذا عن قلبي؟

- لا تقلقي سيستكين يوما، ولا أملك لك إلا وعدا بأن قلبي لن يكون إلا لقلبك..

ثم صمت لبرهة قبل أن يخرج علبة مخملية من جيبه أعطاها لسلمى والتي التقطت العلبة بلهفة لتفتحها لينتفض قلبها فرحا، فقد وجدت ما تحلم به كل أنثى، خاتم خطوبتها وقد نقش عليه حرفا "ي" و "س".

تناست سلمى الحلواني حزنها وتطاير قلبها طربا بما حدث ليكمل يوسف المصري حديثه قائلا:

- لقد عاهدت نفسي على نصرة الخير وسأدافع عن فكرتي أمام كل من يقف أمامي مهما حدث فلن أتراجع، لن أتراجع أبدا.

ابتسم ضياء السنّاوي بعطف مصطنع وهو يرى المحاليل الطبية معلقة في أوردة حمزة أبو عاشور والذي نظر بدوره يمينا ويسارا في ترقب

وخوف من أن يأتيه أحد يطالبه بثمن تلك المحاليل وفطن ضياء لذلك فقال له:

- لا تخف، كما أخبرتك العلاج هنا مجانا ولن تدفع شيئا، وانظر أيضا ها هو الممرض الرحيم يسحب منك بعض قطرات الدم كي يجري لك تحاليل شاملة للاطمئنان على صحتك.

بالطبع لا يدري حمزة أن تدفق دمه في أنبوب المختبر يساوي تدفق المال في جيوب صديق عمره ضياء السنّاوي الذي تحول من مجرد مريض فقير ليس إلى سمسار فقط بل إلى كلب وفيّ يحرس الذئاب الذين سرقوا كليته، يالها من صفقة مربحة لضياء فيكتسب مالا من كل مريض يحضره في الوقت الذي سيتساوى هو مع أقرانه في وجود كلية واحدة، ولكن لسوء حظه لم يخبره أحد من الأطباء أن هناك أيضا كبدا يمكن التبرع بفصوصه وبسعر أغلى.

تحجج ضياء لصديقه أبو عاشور الذي لا يزال راقدا في المستشفى بذهابه لدورة المياة وأنه سيعود سريعا ليذهب نحو مكتب مدير أمن المستشفى الذي ابتسم لضياء بمجاملة مثنيا على إتمامه أول مهماته بنجاح وألقى إليه بلامبالاة مبلغا من المال التقطه ضياء السنّاوي بجشع الذي قام بدوره بعد النقود بشغف وهو يكاد يقبل كل ورقة نقود وسط

ابتسامات ساخرة من مدير أمن المستشفى ومفتولي العضلات المحيطين بهم، وما إن اطمأن ضياء على اكتمال نقوده حتى ابتسم وهو يحتضن المال ويخفيه في جلبابه الواسع، وما إن همّ بالخروج من المكتب حتى استوقفه مدير الأمن قائلا:

- أحسنت فعلا يا ضياء ولتتجهز سريعا لإكمال باقي الخطة واعلم أن أي خطأ سيكلفك الكثير.

- لا تقلق يا سيدي فطالما يدكم ممدودة بالمال سترون العجب مني.

وخرج من الغرفة محتضنا أمواله متلفتا يمينا ويسارا خوفا من أن يراه أحد وتوجه إلى حمزة أبو عاشور الذي أنهى علاجه:

- كيف الحال الآن؟

رد حمزة أبو عاشور:

- قد زال الألم ولكن الطبيب أكد أني سأحتاج لعملية لإزالة حصوات الكلى.

رد ضياء وقد علم بما يضمره الطبيب:

- لا تقلق إنها عملية بسيطة وقد أُجريت لي وبدون مقابل وليس في هذه المستشفى القديمة بل في الفرع الجديد الذي يشبه مستشفيات الأمريكان.

قال حمزة:

- ولكني أخاف من العمليات.

- دخولك للعمليات أهون من آلام الكلى المتكررة.

طأطأ حمزة أبو عاشور رأسه في استسلام، فقد أذله ألم الفقر قبل ألم الجسد، وبالفعل ما هي إلا ثلاثة أيام وقد أجريت لحمزة أبو عاشور عملية إزالة حصوات الكلى، وبالطبع لم يفارقه ضياء السنّاوي للحظة للاطمئنان على أمواله التي سيأخذها فضلا عن طمأنة حمزة أبو عاشور على حالته كي لا يشك فيما حدث.

مرت الأيام على حمزة أبو عاشور وحالته بدأت في التحسن قليلا فلم يعد يشعر بآلام الكلى، وإن كان ألم الجرح الكبير لا يزال يؤلمه، ولكنه بالطبع لا يضاهي آلام الحصوات المتكرر وهو لا يعلم أنه لن يشعر بآلام الكلى ثانية، لن يشعر بها أبدا.

حاول يوسف المصري الاعتماد على ذاكرته المنهكة للوصول لمنزل ضياء السنّاوي ولكنّه ليس بالأمر الهين فتلك الأزقة الملتوية التواء

الثعابين تتشابه فيما بينها، فالقمامة المتناثرة في كل مكان تخبئ أي معالم تدله على الطريق، إلى أن اضطر في النهاية لسؤال الناس وهو لم يكن يرغب في ذلك كي لا يلفت النظر إليه وبعد نصف الساعة وجد من يدله على منزله وظل يطرق الباب لمدة عشرة دقائق ولم يجد مجيبا فعاد أدراجه حزينا خائبا بعد أن أخبره أحد المارة أن ضياء السنّاوي مختفٍ منذ أسبوع ولم يره أحد.

بدأ حمزة أبو عاشور يخرج من بيته متغلبا على آلام جروحه كي يسعى على رزقه، فهو مجرد عامل بناء باليومية، ولكن الشحوب الذي بدا عليه جعل كل أصحاب الأعمال يرفضون تشغيله، فالصحة الجيدة هي رأس المال الحقيقي للعامل، فما بالك إن كان قد أجرى جراحة كبيرة، ولكنه لم ييأس فحاول مرات عديدة لعدة أيام متواصلة ولكن دون جدوى، ليعود أدراجه للزقاق الذي يعيش فيه وفجأة بدأ يتصبب عرقا وأحس باختناق بصدره شاعرا بأن روحه قد أذن لها أن تغادر صدره جسده المريض، وما هي إلا لحظات وقد فقد وعيه تماما والتف الناس حوله وحملوه سريعا في توك توك وتوجهوا به نحو أقرب مستشفى عام ليستقبلهم أحد الأطباء الشباب مع ممرضيه لينقلوا حمزة أبو عاشور لغرفة الاستقبال ليتم فحصه وقد بدأ يظهر عليه بعض التشنجات مما زاد من قلق الطبيب المعالج فالأمر يبدو خطيرا خاصة مع ارتفاع ضغط دم

المريض، فالأمر قد يتطلب نقل المريض لمستشفى بإمكانيات أكبر ولكنه بدأ بعمل بعض الإسعافات الأولية المتاحة لديه دون أي استجابة من المريض الراقد، في الوقت الذي قام فيه أحد الممرضين بسحب عينة دم لإجراء بعض التحاليل حيث من حسن طالع المريض أن أحد الأخيار قد تبرع بجهاز تحاليل جديد للمستشفى يظهر النتائج في وقت قصير، وما هي إلا دقائق وتنفس الطبيب الشاب الصعداء فالعلامات الحيوية للمريض بدأت في التحسن وبدأ يستعيد وعيه شيئا فشيئا ليجد الطبيب مبتسما في عطف مربتا على كتفه قائلا:

- لا تقلق ستكون بخير.

سأل حمزة أبو عاشور:

- أين أنا وماذا حدث؟

رد الطبيب:

- لا تقلق أنت في المستشفى تبعد أن تعرضت لإغمائة بسيطة وننتظر بعض التحاليل البسيطة للاطمئنان أكثر على حالتك ولكن فقط أخبرني، ما الذي دفعك لاستئصال كليتك؟

- كلا لم أستأصلها فقط أزلت بعض الحصوات بها.

غمغم الطبيب الشاب في قلق:

- ولكن جرحك كبير ولا أظن أنه مجرد إزالة حصوات.

وفجأة توقف الطبيب الشاب عن الحديث ودق قلبه بعنف محدثا نفسه بعد بدأت تتكشف خيوط حالة المريض الذي أمامه ليكمل حديثه لنفسه قائلا:

- أرجو أن أكون مخطئا في ما أظنه، فلننتظر نتائج التحاليل وماذا ستسفر عنه.

ليأمر الممرضين بالذهاب بالمريض لغرفة الأشعة لعمل أشعة تليفزيونية.

- ماذا فعلت مع ضياء السنّاوي يا إبراهيم؟

- خطتك تسير على ما يرام يا د. منتصر، وهذا المريض لم يكتفِ بأخذ مقابل لكليته بل جاء بصديق عمره وأقنعه بإجراء عملية بالمستشفى وكانت مصادفة سعيدة بكون صديقه ذي فصيلة نادرة وبالطبع فمقابلها سيكون باهظا.

- المال يفتح كل الأبواب المغلقة ولكن تذكر، لا أريد أخطاء.

- بالطبع يا دكتور، ثق بي ستمر الأمور بسلام.

- سنرى فلتذهب لعملك.

وما إن خرج د. إبراهيم البحيري من الغرفة حتى أمسك د. منتصر بهاتفه الذهبي قائلا لمحدثه:

- احجز لي في أقرب وقت تذكرة لسويسرا وتأكد من تحويل أموالي لهناك فقد لا أعود قريبا، فقد لا أعود أبدا.

أسقط في يدي الطبيب الشاب عندما رأى تحاليل حمزة أبو عاشور، فالأمر كما توقع، ارتفاع حاد في نسبة الكرياتينين والبولينا والبوتاسيوم وهو ما ينبئ بتعرض المريض لفشل كلوي حاد قد يهدد حياته أو سيلازم ماكينة الغسيل الدموي طيلة حياته وسط نظام غذائي صارم، ولعلها من أصعب الأمراض أن يتعامل الطبيب مع مريض لا يرجو الشفاء، كما أن تقرير الأشعة التليفزيونية زاد الطين بلة حيث أشار لعدم وجود إحدى كليتي المريض وضمور الأخرى.

لم يجد الطبيب الشاب ما يقوله لحمزة أبو عاشور الذي بادره بالسؤال عن حاله:

- ما الأمر يا دكتور؟

- لديك ارتفاع في وظائف الكلى.

- كيف حدث هذا؟؟ لقد أجريت فحوصات شاملة أكدت أنه لا مشاكل لدي سوى حصوات الكلى وتم إزالتها.

لم يجد الطبيب الشاب بدا من مصارحة المريض بحالته:

- لم يكن الأمر كذلك للأسف فيبدو أنك تعرضت لسرقة كليتك في الوقت الذي لديك كلية ضامرة لا تقوى على صيانة جسدك وحدها.

امتقع وجه حمزة أبو عاشور غضبا لدرجة ألجمته عن النطق ليلتقط هاتفه المحمول ليتحدث لضياء السنّاوي مكيلا إليه بوابل من السباب في كونه السبب في ما حدث.

قال ضياء السناوي:

- أقسم لك أني لا أعرف ما حدث، فلتهدأ قليلا.

- كيف أهدأ أيها الخائن؟؟ وقد أصبحت بسببك مريضا بالفشل الكلوي.

- أقسم لك لا أعرف ماذا حدث، نحن تربينا سويا واقتسمنا أرغفتنا سويا فلماذا سأخونك بعد هذا العمر كله؟؟ لا تخف لن يحدث شيئا، فقط أخبرني أين أنت وسأكون عندك في أسرع وقت.

- أنـا فـي المستشـفى العـام و مـن مصـلحتك ألا تتـأخر وإلا سـيكون لـي تصرف آخر.

رد ضياء السنّاوي في لهفة مصطنعة:

- لن أتأخر يا أخي، لن أتأخر.

وأغلق ضياء السنّاوي الهاتف مبتسما في سخرية:

- كيف سأتأخر يا صـديق العمر؟؟ فأنـت ثروتـي الآن فلتصـبر قليلا فقد بقي القليل كي آخذ باقي أتعابي.

مطلقا ضحكة شيطانية هزت أرجاء جحره الجديد الذي أجّره بما اكتسبه من كلية صاحبه.

ما هي إلا نصف الساعة وقد دخل ضياء السنّاوي للمستشفى العام راسما علـى وجهـه الغضـب العـارم عمـا حـدث لصـاحبه حمـزة أبـو عاشـور ليحضتنه في عطف شديد قائلا:

- لا تخف يا حمزة لن يضيع حقك!

رد حمزة أبو عاشور ساخرا:

- كيف أيها الهمام؟؟ هل ستجعلهم يسرقون كليتي الضامرة أيضا أم سيعطونني كلية جديدة؟؟

- بالطبع ليس بالأمر الهين ولكن على الأقل ستحصل على تعويض مادي بالإضافة لمصاريف العلاج.

- فلتذهب أموالهم للجحيم فماذا سيفيد المال وأنت جسدك ترتبط نبضات قلبه بتلك الماكينة اللعينة التي تبقيك حبيسها لتستنزف جسدك مقابل أن تنقي دمك؟

- بالطبع لا شيء يعوض فقدان الكلية ولكنك أمام أمر واقع فلننقذ ما يمكن إنقاذه.

أشار حمزة أبو عاشور في وهن لضياء السنّاوي بلا مبالاة:

- افعل ما شئت فماذا سيضير القرد إذا سخطوه؟

- استرح وسأذهب للمستشفى ولن أترك المكان حتى أحصل لك على حقك حتى لو كلفني ذلك حياتي.

ابتسم حمزة أبو عاشور في سخرية للأداء المسرحي لضياء السنّاوي مشيحا بوجهه للجهة الأخرى في الوقت الذي خرج فيه ضياء السنّاوي

مسرعا متجها للمستشفى للبدء في الجزء الثاني من الخطة فالأمر الآن قد بدأ في الجد والخطأ لن يجعل لرقبته مكان على كتفيه.

ما إن خرج ضياء السنّاوي من المستشفى العام حتى أخرج شريحة هاتفه المحمول التي كان يتواصل من خلالها مع يوسف المصري وهو بيتسم في خبث:

- جاء دورك أيها المنقذ الهمام فلنر ماذا ستفعل.

ووضع الشريحة في هاتفه الجديد الذي لا يتناسب مع مظهره الفقير ليرد عليه يوسف لمصري بلهفة:

- أين أنت يا ضياء؟؟ لقد قلقت عليك كثيرا!

- لقد نجوت منهم بأعجوبة بعد أن أرسلوا خلفي رجلين من كلابهم مفتولي العضلات ولولا أني دخلت في أزقة معوجة لكانوا قد لحقوا بي وقتلوني.

- ألهذا غيرت مسكنك؟

- بالطبع لقد ذهبت للمبيت عند أولاد عمي في منطقة أخرى، فعنواني لديهم في البطاقة.

- أريد أن أقابلك لنرى ماذا سنفعل في المرحلة القادمة.

رد ضياء في بكاء مصطنع:

- بالطبع فأنا منتظر رؤيتك فأنا الآن في مصيبة أخرى فصديقي حمزة أبو عاشور صديق العمر قد سرقوا كليته هو الآخر ولكن الكلاب لم يهتموا بكون كليته الأخرى ضامرة فبالتالي تدهورت حالته وأصبح مهددا بالفشل الكلوي.

- للأسف هؤلاء ذئاب لا يرحمون أحدا فقط يرون المال ولا يهمهم أولئك الصراصير الراقدين بحسن نية على أسرة المرض.

- هل لا زلت تريد أن تساعدنا؟

- بالطبع سأساعدكم مهما كلفني الأمر، فقط أخبرني كيف أقابلك.

- للأسف لا أستطيع مغادرة المستشفى التي بها صديق العمر.

- لا لا، لا تتركها سآتي لك حالا، لن أتأخر، لن أتأخر.

أغلق ضياء السنّاوي الاتصال مطلقا ضحكة شريرة عالية قائلا:

- لا تتأخر يا حبيبي فأنا لا أطيق فراق ما تبقى من أموالي لديهم.

وبعد مرور ساعتين عاد ضياء السنّاوي للمستشفى ليستبق وصول يوسف المصري للمستشفى ليدخل لغرفة حمزة أبو عاشور ليجده نائما وحيدا في الغرفة حيث انشغل باقي الطقم الطبي بحادثة دخلت لطوارئ المستشفى فكانت فرصة سانحة ليخرج حقنة أخفاها في جيبه الداخلي ويدسها سريعا في المحلول المتصل بذراع حمزة أبو عاشور وما إن أنهى ما فعله كما علمه د. إبراهيم البحيري حتى ابتسم كما الشيطان متمتما: ها قد سرى الدواء إلى جسدك يا حمزة، سأفتقدك يا رجل ولكن قدرك أن تضحي كي يعيش ضياء السنّاوي سعيدا منعما، هيا فلنستفيق قليلا فأنفاسك القليلة الباقية سنحتاجها جميعا، وأعدك بقبر جميل أفضل من الجحر الذي كنت تسكن فيه.

- فلتستفق يا صديقي فالمستشفى اللعينة قد أرسلت لك مندوبا كي يتفاوض معك على حقوقك.

قالها ضياء السنّاوي وهو يربت على كتف أبو عاشور برفق وبالفعل استفاق أبو عاشور في غضب وقد بدا عليه الوهن ولكن رغبته في الانتقام والغضب منحته القدرة على الاعتدال في مجلسه وقال:

- فليأتِ هذا اللعين وسأمزقه بأسناني إربا.

- فلتهدأ يا صديقي كي لا تزيد آلامك.

- فلتذهب آلامي للجحيم فقط أريد أن أطفئ نار الألم التي في صدري مما فعله هؤلاء الكلاب.

وأثناء حديثهما دخل يوسف المصري للغرفة موجها السلام لحمزة وضياء ليبادله الأخير السلام في الوقت الذي أحس فيه حمزة بازدياد الوهن في جسده ولكنها فرصة لن تعوض بالانتقام من هؤلاء الكلاب في شخص مندوبهم، وبادر ضياء بالكلام:

- يا مرحب يا أستاذ يوسف، استرح هنا وسأحضر لك كوبا من الشاي كي نستطيع الحديث.

وخرج سريعا قبل أن ينتظر رد يوسف والذي صمت لبرهة ثم ابتسم بعطف موجها حديثه لحمزة أبو عاشور.

- كيف أحوالك يا أستاذ حمزة؟

- كما ترى أيها الباشا، كلب ملقى على سرير المرض لا حول له ولا قوة ينتظر الموت ليرحمه من آلامه.

- لا تقل هذا، ستكون بخير.

- كيف سأكون بخير أيها الباشا؟؟ هل لديك كلية زائدة في حقيبة سيارتك ستعطيها لي؟

- بالمناسبة لست باشا كما تقول فأنا مثلك تماما إنسان متوسط الحال بل وأرغب في مساعدتك.

هنا استجمع حمزة أبو عاشور كل ما تبقى لديه من قوة ليمسك بتلابيب صارخا بأعلى صوته:

- ماذا تريدون أن تسرقوه مني ثانية أيها الكلاب؟؟ ألم يكفكم ما سرقتموه؟؟ لماذا تظنون أن بقاءنا على قيد الحياة هو تفضّل منكم علينا حين تلقون إلينا بفتات أكل كلابكم؟؟

فوجئ يوسف المصري بتلك القوة التي ظهرت على حمزة أبو عاشور وحاول التملص من قبضته القوية قائلا بصوت مبحوح:

- أنت لا تفهم شيئا أنا في صفك وأريد حقوقك ولست منهم.

قال حمزة أبو عاشور وقد زاد من صراخه الهستيري:

- كلكم تقولون هذا الكلام أيها الكلاب لاستهلاك ما تبقى من أجسادنا الفقيرة، فلتذهبوا جميعا للجحيم وإن كنت مقبلا الآن على الموت فلن يضيرني شيء إن أخذت روحك معي.

ثم ضغط على رقبة يوسف المصري بجنون ليخنقه واستجمع يوسف المصري قواه ليرفع يد حمزة ووجد صعوبة كبيرة في ذلك لينتهز ضياء

السنّاوي الذي كان يقف على باب الغرفة الفرصة ليدخل سريعا للغرفة ليجد الوضع الملتهب ليصرخ على عكس ما توقع:

- أيها اللعين، تريد أن تقتل حمزة صديقي كي تواري سرقتكم اللعينة؟؟

- ماذا تقول يا ضياء؟؟ أنت تعلم جيدا لماذا أنا هنا.

-أنت هنا لكي تقتل صديقي، سأستدعي لك الأمن والأطباء كي ينقذونا منك.

وانطلق خارجا من الغرفة مناديا بصوت عال:

- أنقذونا، أنقذونا هناك غريب يريد أن يقتل صديقي.

وما هي إلا لحظات وبدأ الجميع ينتبه لصراخه وتركوا أعمالهم لينقذوه.

يا له من فخ حقير من ذلك الخائن ضياء السنّاوي الذي كاد يوسف المصري يضحي بحياته من أجله، ولكنّه ككثير من البشر يرفض أن يعيش كإنسان، وفجأة بدأت قبضة حمزة أبو عاشور ترتخي قليلا وبدأ يتصبب عرقا وبدا أنه يبحث يأسا عن أنفاس من الهواء ليدخلها لرئتيه ثم ما لبث أن انهار فجأة ليسقط على الأرض وقد بدأ يغيب عن الوعي في الوقت الذي اقتربت فيه الأقدام التي يصاحبها أصوات غاضبة من ذلك القاتل الذي لم يرحم ضعف المريض، هنا أيقن يوسف المصري أن

وجوده في الغرفة سيجعل الغاضبين يفتكون به فنظر حوله سريعا ليجد نافذة مفتوحة فقفز منها سريعا وقلبه يكاد يقف غضبا وكمدا مما حدث، لماذا أيها اللعين ترفض أن تعيش كإنسان؟؟ لماذا تريدون جميعا قتل ذلك الإنسان الذي يعيش بداخلي؟؟ لماذا تقسون دائما على القلب الذي يحبكم؟؟ فلتهنأوا بدنياكم القذرة، فلتتقاتلوا على الفتات، فلتستبيحوا حرماتكم، فلتأكلكم ذئابكم دون صوت فصراخكم سيثير الشماتة في قلبي، ولم يجد يوسف أمامه فرصة لالتقاط أنفاسه اللاهثة فاستجمع ما بقي من قواه ليركض بعيدا عن المستشفى، وما هي إلا لحظات وتبعه بعض الرجال ولكنه قفز سريعا في أحد المركبات التي انطلقت سريعا بعيدا عن المستشفى.

- للأسف قد فاضت روحه إلى بارئها.

قالها الطبيب الشاب في حزن ويأس شديدين لينهار ضياء السنّاوي في مشهد مسرحي متقن وهو ينتحب على وفاة رفيق عمره على يد ذلك السفاح يوسف المصري مقسما على الانتقام منه ليحتضنه أحد الحاضرين بقوله:

- فلتصبر أيها الرجل ولكن إكرام الميت دفنه فلننهِ إجراءات الدفن ثم افعل ما شئت.

قال الطبيب الشاب:

- ليس الأمر بهذه السهولة فيجب إبلاغ النيابة العامة كي يتم استصدار تصريح الوفاة.

هنا احتضن ضياء السنّاوي جسد صديق عمره باكيا:

- سأدفنك يا صديقي بيدي هاتين وبيدي سأقتص لدمك، ولكن سيدي الطبيب أرجو منك رجاء لا تخذلني فيه.

- وما هو؟

- لا أريد لجسد صاحبي أن يتم تشريحه فكفاه ما حدث له.

- بالطبع لا أحد يريد ذلك ولكنها شبهة جنائية ويجب إبلاغ النيا...

لم يكمل الطبيب الشاب كلمته فقد جاء من يخبره بتدهور حالة أحد المرضى الذين جاؤوا في الحادث ليترك المكان مسرعا نحوهم.

هنا استجمع ضياء السنّاوي قوته ليقولها للحاضرين: من منكم يأخذ تلك الخمسمائة جنيه ويستخرج لي تقرير الوفاة؟؟ فما قيمة المال إن لم يحمِ جسد رفيقي من التشريح.

أشار له أحد الحاضرين:

- فلتأتِ معي وسننهي كل شيء.

وسط لا مبالاة من باقي الحاضرين. وبالفعل استغل ذلك الرجل معرفته بدهاليز المستشفى في الوقت الذي انشغل فيه الطبيب الشاب بمباشرة المريض الذي تدهورت حالته ليستخرج التصريح، بل ووفر لضياء سيارة لنقل جثمان صديقه، وما هي إلا نصف ساعة وانطلقت السيارة نحو المقابر لتخفي جسد حمزة أبو عاشور، تخفيه للأبد.

تنهد ضياء السنّاوي في ارتياح بعد أن أتم المطلوب منه كما أخبره د. إبراهيم البحيري وأخرج هاتفه ليتصل بالدكتور إبراهيم البحيري ليزف إليه الخبر السعيد.

- ها قد أديت المطلوب مني دون خطأ يا دكتور.

رد د. إبراهيم البحيري في هدوء:

- أحسنت يا ضياء.

- قد بقي دوركم يا دكتور، أريد ما تبقى لي من مالي لديكم سآتي إليك الآن كي أحصل على باقي حقوقي لديكم.

- لا نريد لفت النظر إلينا في المستشفى فلتخبرني بمكانك وسأرسل لك مالك حالا.

- سأخبرك ولكن لا تتأخر، فلست لقمة سائغة.

- بالطبع لن أتأخر فأنا رجل له كلمة كالسيف.

أغلق د. إبراهيم البحيري الهاتف في برود مشعلا سيجاره الضخم في ارتياحية موجها حديثه لمدير أمن المستشفى: بقيت لك مهمتك الأخيرة فلتعطِ هذا الحقير ما يستحقه، ولكن لا مجال للخطأ.

وما هي إلا ساعات وكان جسد ضياء السناوي يسبح غارقا في النيل بعد أن ربط على جسده حجرا كبيرا كي لا يطفو، فالذئاب لا تريد أن تترك وراءها أثرا، ومقام الكلب الخائن يجب أن يكون من جنس عمله.

ضاقت الدنيا أمام عيني يوسف المصري فبالطبع الآن صار مطاردا وعودته للمستشفى ستكون طريقه للسجن، وبدا له أن كل من حوله ينظر إليه في شك وتوتر فوجه حديثه للناس قائلا بسخرية منهكة: لماذا ترتابون في؟؟ هل أول مرة ترون إنسانا يريد أن يحيا الناس كبشر؟؟ هل أول مرة ترون إنسانا فيها يحب الخير دون مقابل للناس كلها؟؟ ولكن سرعان ما قطع حديث نفسه رنين هاتفه ليجد رقما سريا يتصل عليه،

- من معي؟

- هل لا زلت تكابر أيها الإنسان؟

- أنا لا أكابر، أنا أسعى فقط لإظهار الفطرة الحقيقية للبشر أنهم بشر.

- ألم تتعلم مما سبق؟

- ومن قال غير هذا؟؟ لقد تعلمت أن لدي فكرة خالدة والأفكار لا تموت.

- كما أنت لا تريد أن تتغير.

- فلتتغير أنت.

- أنا أتغير كل يوم بالفعل فوجهتي تتغير مع وجهة مصلحتي.

- وما هي وجهتك؟

رد المتصل في برود:

- أن أثبت لك أنك على خطأ.

- ولماذا تترك لي دائما بابا للهروب؟

- كي أستمتع بانتصاري عليك.

- ولكنك لن تنتصر.

- الأيام ستحكم يوما ما من منتصر.

ثم أغلق المتصل الخط في صفاقة.

أحس يوسف المصري بأن الهواء يأبى الدخول لرئتيه رغم غياب الشمس الحارقة وبدأ دخول ساعات الليل فلأول مرة يشعر بهذا العجز واليأس ولمح حديقة بجوار السنترال فتوجه إليها مترنحا وما إن وصل

إليها حتى ألقى جسده المنهك على حشيشها محاولا استنشاق الهواء المطعم برائحة الزروع لعله يهدئ من روع نفسه اليائسة.

أخذ يستعيد ما مر به من أهوال لاقاها كي يدافع عن فكرته، ابتسم مع ذكريات الفرح وبكى قلبه مع ذكريات الألم، ولكن بقي الآن السؤال الأهم، هل ستكمل أم ستنسحب؟؟ هل ستترك فكرتك التي آمنت بها طوال حياتك؟؟ هل ستترك الشر ينتصر؟؟ أم ستغير من حياتك وتصير أنت الشر لعلك تنتصر؟؟ أحس يوسف بقلبه يكاد يعتصره الألم فابتسم وهو يصبب عرقا، هل حان خروج الروح من جسدي؟؟ وبدأت قواه تخور تماما لينظر للسماء ليجد النجوم قد رسم له الوجه الذي أعاد البسمة لقلبه العليل، رآها وهي تضحك إليه في دلال، رأى عيونها اللامعة التي طالما تاق لرؤيتها، وما هي إلا لحظات حتى مدت إليها يديها فرفع إليها يديه في شوق ولكن لم تأت الرياح بما تشتهي سفن المحبين، فقد انهار جسده تماما وهو ينطق بحروف اسمها وأغمض عينيه لتكون صورتها هي آخر ما رآه.

لم تتمالك سلمى الحلواني نفسها فانهمرت دموعها حينما أنهت حديثها مع د. منصور الذي بدا واجما ولم يجد ما يقوله فلا أحد يعرف قيمة الحياة كالطبيب، فحين يدخل إنسان ما بين الحياة والموت يهب الجميع لإنقاذ روح واحدة قد يقفون بجوارها طوال الليل فما بالك بمن يزهق

أرواح الآلاف من المرضى مقابل حفنة من الدولارات اللعينة التي ينفقها على ملذاته وشهواته دون النظر لكونها وبالا عليه وعلى أولاده في الدنيا قبل الآخرة، ولكن د. منصور قطع الصمت صارخا وهو يغالب دموعه:

- كلا لن أتركه، سأظل خادمه حتى يعود لحاله.

- وأنا لن أتركه فلا أحد يستطيع أن يعيش دون قلبه.

- ولكن ماذا سنفعل؟

- لن أيأس فيقيني أن الخير سيحمي أصحابه.

- أراك تتحدثين بلسان يوسف المصري.

- بل أتحدث بقلبه.

- فلنكن عمليين سأحاول التواصل مع بعض الأصدقاء من أطباء المخ والأعصاب لعلني أجد طريقة لعلاج يوسف.

- ولا تحمل همّ المال فلدي ما يكفي لعلاج يوسف وإن لم يكف ما عندي سأبيع سيارتي وبيتي.

- وما المقابل؟؟ فقد لا يعود.

- يكفيني القرب منه.

- هذه أرقام هواتفي ولكن سأكون منشغلا غدا فقد حان الوقت لمناقشة رسالة الماجستير الخاصة بي بعد تعب كبير.

- بالتوفيق ولكن هناك أمر هام.

- وما هو؟

- يجب ألا يظل يوسف في المستشفى فأنا لا آمن وجوده هنا.

- ولا أنا لذا أعددت البديل.

ردت سلمى باهتمام بالغ:

- وما هو؟

- لدي فرصة عمل في محافظة أخرى سأبدأ في السعي لها بعد إتمام الماجستير وسأترك هذا المكان وأقطع صلتي بكل من هم هنا وآخذ معي يوسف لمكاني الجديد وهناك لا أحد يعلم عنه شيئا وسأعالجه بصفته ابن خالي.

- وأنا معكم حتى لو ذهبتم لنهاية العالم.

- أتحبينه لهذه الدرجة؟؟

ابتسمت سلمى في خجل:

- كما قلت لك لا أحد يستطيع العيش بدون قلبه..

ثم أتبعت حديثها قائلة:

- ولكنك هكذا ستضحي بترقيتك في المستشفى هنا بعد أن تحصل على الماجستير.

- يالها من تضحية عظيمة سأضحيها بالفعل، سأفتقد الناموس الذي رافقني طوال وجودي، سأفتقد غرفة الاستراحة التي لعل وعسى قد يصيبها التطوير عندما يتولى أحد أحفادي إدارة المستشفى، كما سأفتقد الاحتفاء من أهالي المرضى الذين يستقبلون ضعف الإمكانيات بمنتهى البشاشة فلكِ يا سيدتي أن تتخيلي سعادتهم الكبيرة أثناء تكسير زجاج الاستقبال للتعبير عن فرحتهم بدماء الطبيب التي تسيل على الأرض ليتأكدوا من كون روحه الرياضية لم تغادر ملعب الحياة، لا تقلقي سأتبرع بترقيتي لسامية كي تعطيها لمن يستحق.

ضحكت سلمى كثيرا على كلمات د. منصور لسابق معرفتها بأحوال المستشفيات ثم ما لبثت أن ألقت نظرة سريعة على حبيبها الراقد في

سبات عميق كأنه يعيش في جنة غانية، وما إن اقتربت منه تودعه وتحدثت إليه بصوت خفيض ومدت يدها لتحتضن يده حتى ارتجف قلبها في عنف فقد خُيّل لها أنه، أنه يبتسم ليس هذا فقط بل وشعرت أنه يضغط بيده على يدها! فعادت مسرعة لتخبر د. منصور بما حدث والذي بدوره جاء مهرولا ولكنّه وجد الأمر كما هو فابتسم ساخرا:

- بالطبع لن يبتسم لي فكيف يبتسم لطبيب في وجود الحبيب، ولكن ما حدث أعتقد سيفيد أطباء المخ والأعصاب في التشخيص ثم العلاج، فلا نملك إلا القانون الذي يطبقه أطباء الباطنة WAIT AND SEE.

انصرفت سلمى سريعا وقد شعرت أن روحها قد عادت إليها فالآن وجدت حبيبها الذي فقدته ولكن عاد إليها جسده دون روحه ولكنها ستقبل حتى بأنفاسه فطالما الأمل بالشفاء موجود ستظل راضية بجواره ما تبقي من حياتها.

عاد د. منصور لمنزله منهكا ومجبرا على ترك الراقد وحده وضميره يلومه رغم أنه أوصى زملاءه بالمستشفى أن تظل أعينهم عليه طوال الوقت فهو لا بد أن يذهب غدا لمناقشة رسالة الماجستير التي تعب من أجلها كثيرا بل وضحى لأجلها بكثير من الأموال لكي يحصل على شهادة ستزيد من راتبه خمسة جنيهات كاملة وفوق هذ اشترى حذاء

جديدا لكي يبدو بهيئة جيدة أمام لجنة المحكمين التي غالبا ما تتناقش حول الأخطاء اللغوية في الرسالة وطريقة كتابة المراجع فموضوع الرسالة قد قَتِل بحثا والجميع يعلم أن الرسالة مقتبسة من رسائل أخرى ولكنها شكليات يا عزيزي كي تحصل على شهادة تمكنك من البدء في التخطيط لمستقبلك كطبيب فغمغم في سخرية: ياله من مستقبل مشرق أن تبدأ الإعداد لحياتك المهنية بعد أن زاد انحناء ظهرك طبقا لانحناء الكرش العظيم في الوقت الذي تكافح فيها شعيرات الرأس في البحث عن غذاء يبقي بصيلاتها حية وسط زحف الصلع ولكن لا بأس فالصلع كما يقولون هو دليل الذكاء المتوقد، رغم أنه لو كان يملك قدرا من الذكاء لاختار البعد عن مهنة الطب التي تستهلك ما تبقى من خلاياك العصبية وتحولها لكومة قش تربض داخل جمجمة لا دور لها سوى الحفاظ على تلك كومة القش من النور كي تنام بهدوء، وها قد تأخر الوقت بالفعل، فلأنم قليلا وبالطبع سأكتب لوحة عملاقة على مرآة غرفتي تذكرني بالذهاب للمناقشة فذاكرتي لا تعمل بانتظام.

- كنت أعلم أني سأقابلك.

قالها منصور وهو يسير في طريق ممهد محاط بالنور والأشجار المنسقة تنسيقا محترفا.

رد الراقد مبتسما:

- هل لا زلت تريد أن تعرف من أنا.

- بالطبع، كلا.

- لماذا؟

- لأني بالفعل أعرفك.

ابتسم الراقد في هدوء:

- توقعت أن تعرفني.

- نعم أعرفك أنت الأستاذ أحمد عبد الرحمن الموظف الذي رفض أخذ الرشوة مقابل تزوير عقود أراضي الدولة، وأنت المدرس مصطفى عبد الكريم الذي يصر على تعليم الفقراء بعيدا عن إغراءات الدروس الخصوصية، وأنت الطبيب محمود عبد الله الذي عالج المرضى كما ينبغي ولم يلتفت لإغراءات شركات الأدوية، روحك موجودة في كل هؤلاء فحينها لاقيمة للاسم.

- وهل ستنتصر تلك الروح يوما؟

- حقيقة لا أعرف.

- ولا أنا لذا أنا أعيش هنا.

- هل أنت حي أم ميت؟

- ماذا ترى أمامك؟

- روحك حية لكن جسدك راقد.

- وماذا سيضير الجسد إذن؟؟ فلتأتِ معي لترى عالمي.

- عالمك!!

- نعم، تعال معي لا وتخف.

ابتسم منصور في سخرية:

- لا يوجد طبيب يخاف فما رآه في حياته كفيل بدحر أي خوف فيكفيه أن بداية معرفة طالب الطب بالكلية تكون في المشرحة وسط الجثث المفعمة برائحة الفورمالين وهو يقابل ذلك ببرود ملتهما شطيرة من الهمبورجر بيده اليمنى التي كان يستند بها على أحد الجثث كي يتفحص عضلاتها ناهيك عن مزاملته لقطط وفئران قصر العيني والجري وراءهم في ممر القصر بعد أن تأوي العفاريت لفراشها.

ضحك الراقد ضحكة صافية وأشار لمنصور أن يتبعه ليسيرا معا في مروج خضراء تتخللها بعض البيوت الخشبية الأنيقة المتشابهة في تصميمها ليقول:

- لا يوجد هنا أماكن للفقراء وأماكن للأغنياء، الكل هنا سواسية، لا مكان للكره أو الحسد فالجميع، هنا يعالج الجميع أمراضهم دون تمييز، التعليم هنا للجميع، هنا يعيش الصالحون فقط.

- يالي من غبي! كل هذا وأنا أريد أن أعالجك فأعيدك للدنيا القذرة التي كنت تعيش فيها!

هنا ظهر صوت يعرفه الراقد جيدا من خلفهم:

- يالها من لحظات شفقة جميلة، الآن أعلن انتصاري.

نظر منصور والراقد خلفهما ليجدا رجلا يقف في مكان مظلم نسبيا مسندا ظهره للحائط ويخفي ملامح وجهه بمعطف غالي الثمن وبنظارة شمسية تخفي عينيه وهو يدخن سيجارا ضخما في استمتاع.

- لا مكان لك هنا أيها المتصل.

رد المتصل ساخرا:

- ومن قال إني أريد أن أكون هنا؟ فحياتكم هذه تصيبني بالغثيان.

- فلماذا جئت لهنا؟

- كي أعلن انتصاري الأبدي، كما أخبرتك من قبل موتك لن يشبع شغفي بهذا ورؤيتك مهزوما عندي بألف انتصار وانتصار.

- ومن قال إني هزمت؟

- انظر لنفسك هنا، تجري كما الأطفال وسط الزهور متناسيا ما يمر به أقرانك من أهوال في دنياهم القذرة.

- ولكني فعلت ما بوسعي.

- كلا، لديك المزيد، فالخير سيظل له رجاله.

- سأكون لهم بالمرصاد.

- الخير سيحمي أصحابه.

ضحك المتصل ضحكة شيطانية عالية قائلا:

- هذه الترهات تسري هنا في يوتوبياكم أما في أرضي فالبقاء للأقوى، الضعفاء لا مكان لهم سوى مقارعة الفئران على جحورها، لا مجال

للرحمة إلا في قلوب الحيوانات فقد أفنيتَ عمرك لتقنع الإنسان أنه إنسان، الآن رسالتي انتهت وبدأ حصادي.

ثم اختفى بصفاقته المعهودة.

صمت منصور والراقد للحظات فلم يجد منها ردا على حديث ذلك المتصل، ثم بادر الراقد بالحديث قائلا:

-كعادتهم يظنون أنهم سينتصرون دائما..

- ماذا تقصد؟ هل ستعود؟

- بالطبع، فلن يُقال أبدا أن أهل الخير تركوا طريقه.

- وأنا سأكون بجوارك دائما.

جاء ذلك الصوت المميز لكليهما من خلفهما ليلتفتا في تعجب لمعرفة صاحبة الصوت ليرتجف قلب الراقد طربا.

- قد مددت يدي إليك قبل أن آتي لهنا.

ردت سلمى الحلواني في خجل:

- لن أترك يدك ثانية.

- حتى متى؟

- لا يهمني متى، فقط يكفيني جوارك.

- قد لا أعود.

- وقد تعود.

- ومن أين لكِ هذه الثقة؟

- قلبي بشرني.

- قد يكذب عليك.

- حاشاه، ما فعلها من قبل ولن يفعلها في قابل.

- ولكنّه قد يمل.

- كلا لن يمل فهو موصول بقلبك فإن ملّ قلبك فلن يمل هو.

- ولماذا تربطين نفسك بحياتي؟

- لأني ببساطة أحبك.

ابتسم منصور في بلاهة فها هو يرى قصة حب رومانسية كالتي رآها من قبل في أفلام عمر الشريف وفاتن حمامة في الوقت الذي أنهكته

رسالة الماجستير عن معرفة ذلك الشعور، فالطب والحب لا يجتمعان، فمن تكون تلك المجنونة التي تقبل بطبيب قد فقد الكثير من خلاياه العصبية في مذاكرة مراجع ممتلئة بآلاف المعلومات! والذي لن يتورع إن رأى قلبها يدق بسرعة خجلا من ملاقاته أن يدخلها لأقرب مستشفى لعمل الفحوصات لمعرفة سبب تسارع ضربات القلب، فقد درس أن الغدة الدرقية هي التي ترفع نبضات القلب وليس الحب و...

فجأة دق جرس المنبه اللعين فأخرجه من تلك اللحظات الجميلة ففتح عينيه بصعوبة محاولا تذكر ما الشيء المهم الذي جعله يظبط موعد المنبه مبكرا هكذا، فلننم قليلا فالعالم لا يتوقف على أمثالي ولكن أرجو أن ألحق باللقطة التي فاتتني في الحلم، وما إن وضع رأسه على الفراش حتى زأر المنبه ثانية ولسان حاله كأنه يلقي عليه وابلا من الشتائم القبيحة كي يستيقظ فاستسلم منصور فلا بد أن هناك أمرا هاما ولا بد له أن يستيقظ فقام من فراشه مترنحا، ليستعيد نشاطه فجأة عندما رأى تلك الورقة التي تذكره بأن اليوم هو يوم مناقشة الماجستير فقال محفزا نفسه:

- فلننهِ هذا الأمر سريعا فلدينا الكثير لنفعله.

كما هو العادة مرت المناقشة الاستعراضية للماجستير ليتباهى الحاضرون بإظهار معلوماتهم الدقيقة التي لا يعرفها أقرانهم لينتهي قرارهم بإعطاء الدكتور منصور العيسوي درجة الماجستير مع وضع نسخة من الرسالة في مكتبات الدراسات العليا بالكليات المختلفة بالطبع كي تنقل منها الأجيال القادمة.

- الآن ليس لدي غيرك أيها الراقد..

قالها د. منصور بحماس موجها حديثه للراقد حيث تجلس سلمى الحلواني بجواره بعد أن تم نقله للمستشفى الجديد الذي يعمل به د. منصور.

- بل ليس لدينا غيره فأنا لن أتركه مهما طال الزمن.

ابتسم منصور في عطف:

- لا تقلقي لن نلقي الفوطة كما يقولون في الملاكمة، لدينا هنا في المستشفى إمكانيات أفضل من سابقتها سنعيد فحصه ثانية لعلنا نجد علاجا له.

قالت سلمى بحماس:

- وأنا تواصلت مع طبيب ألماني في زيارة لمصر وعرضت عليه حالة يوسف فأخبرني أنها حالة نفسية معقدة يفضل فيها المريض العيش في عالم موازي بعيدا عما لاقاه من ضغوطات نفسية وليس لها حالات مشابهة واضحة في مراجع لطب النفسي ولكن قد يستفيق في أي وقت.

رد منصور بقلق:

- جيد جدا ولكن..

- ولكن ماذا؟؟

- قد لا يعود..

- بل سيعود، سيعود من أجل فكرته، متى؟ لا يهمني.

- ليست فكرته فقط التي سيعود من أجلها بل هناك ما هو مهم لديه كي يعود من أجله.

ردت سلمى باهتمام:

- وما هو؟؟

- د. منصور السعداوي، د. منصور السعداوي برجاء التوجه للاستقبال فهناك حالة طارئة..

هكذا قطع نداء الطوارئ الذي دوى بجميع أنحاء المستشفى الحوار بينهما.

- كلا لا تتركني قبل أن تخبرني بالشيء الذي سيحفز يوسف ليعود لوعيه.

ابتسم منصور في حنان ثم أكمل قائلا:

- أنتِ..

وأغلق الباب الباب خلفه في هدوء تاركا سلمى الحلواني تحدث نفسها.

قالت سلمى الحلواني وقد جلست بجوار حبيبها الراقد محدثة نفسها: هل بالفعل ستعود من أجلي؟ لم تجد إجابة فغالبتها دموعها فلم تتمالك نفسها ووضعت رأسها بجواره تبكي بكاء شديدا، لتكمل وقد بح صوتها: عد، عد فقلبي لا يطيق فقدك، وما هي إلا لحظات وسمعت ذلك الصوت الذي اشتاقت إليه كثيرا.

- لا تفلتي يدك مرة أخرى يا حبيبتي وإلا، وإلا لن أعود أبدا.

تمت

جميع حقوق النشر محفوظة. ولا يحق لأي شخص
أو مؤسسه أو جهة إعاده إصدار هذا الكتاب. أو جزء منه .
أو نقله بأي شكل من الأشكال او تدواله الكترونيا نسخا
أو تخزينا دون إذن خطي من الدار